اقرأ

محمد فهمي عبد اللطيف

سقط المتاع

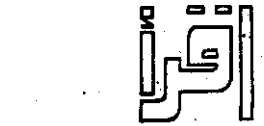

تصدر أول كل شهر

[٤٩٦] فبراير - ١٩٨٤

رئيس التحرير **أنيس منصور**

محمد فهمي عبد اللطيف

سقط المتاع

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

هذا الكتاب

(سقط المتاع) هذا الذى أقدمه إلى القراء، كتاب يضم مجموعة من كراكيب الفكر، جرت بها سوانح الخاطر فى عدد من المسائل الأدبية والفنية وما يتصل بمعنى الحياة وسلوك الناس فى هذه الحياة، فهى فى موضوعاتها أمشاج متناثرة، وإنما تجمعها وحدة الفكر فى جامعة الكتاب.

فى موضوعات هذا الكتاب ستجد ما نجده فى كل بضاعة من اختلاف الذوق، وتباين الجودة، ولكنك على أية حال لن تعدم أن تجد فيه ما يفيد وما ينفع، وإلى جانب هذا سنجد ألوانًا متعددة الطعم، تشبع إحساسك، وتفيد منها زادًا طيبًا من المعرفة، ثم أنت مع اختلاف الألوان لن تملّ الحديث، ولن تفقد البشاشة والنشوة فى رتابة النغمة ذات المقام الواحد كما يقول الموسيقيون.

فلعل القارىء يجد فى «سقط المتاع» ما ينفع، ولعلّى أكون قد استطعت أن أقدم إلى القارىء شيئًا يمتع، والله ولىّ العون والسداد.

فنجان من القهوة

عنوان التحية والايناس .. ومظهر الألفة والمودة بين الناس . غوث المكروب فى عمله ، وعون المفكر فى رأيه ، ويقظة الساهر إذا ما أعياه السهر ودهمه النعاس ..

أسمر اللون أو أسوده ، ولكنه استطاع بروحه الإنسانية اللطيفة أن يسترق الناس من مختلف الألوان والنحل ، وأن يسيطر على دولة تضم ألوف الملايين من سائر الاجناس والملل ، وأن دولته تزداد مع الأيام قوة ، وتتضخم عددا فى عصر تتحطم فيه أضخم الدول وأعظم الامبراطوريات ..

والناس فى هذا العصر يتحدثون عن الديمقراطية والمساواة ، ويحسبونها سمة من سمات هذا العصر ومفاخره .. ولو تدبروا لعلموا

أن صاحبنا وحبيبنا هذا كان دليل الديمقراطية ومظهر المساواة بين الناس منذ أربعة قرون من الزمان، فهو سمير الفقير فى كوخه الحقير.. والغنى فى قصره الكبير.. وهو أيضا فى عون العامل الصغير، كما هو فى عون الوزير الخطير، وإنك لتراه مع أهل المدن فى منازلهم وفى مجالسهم على حيد الشوارع ونواصى الطرقات.. كما تراه مع الفلاحين الكادحين على مصاطب القرى ومنادر الضيافات..

نبت فى منابت الطاعة، ونشأ رفيقا لأهل الزهد والعبادة، وارتاب فيه الفقهاء.. فنكروا أمره.. وشنعوا عليه وعلى الهائمين بحبه.. على أنهم لم يلبثوا أن شغفوا به حبا، وهاموا به وجدا.. واقتدى بهم سائر الناس، فأقبلوا عليه هائمين مشغوفين لا يستطيعون صبرا على فراقه، ولا يطيقون يوما من مجافاته.. وهكذا ملأ حبه آفاق الشرق والغرب، وتغلغل الهيام به فى أنحاء الأرض..

ظهر فنجان القهوة أول ما ظهر فى منتصف القرن التاسع للهجرة على يد شيخ تقى صوفى من أهل عدن اسمه جمال الدين أبو عبد الله بن سعيده.. وكان يتولى رياسة الافتاء فى عدن، ثم خرج إلى أفريقيا.. وأمضى وقتا فى أطراف الحبشة.. وشرب مع أهل تلك الجهات شرابا يصنعونه من حب يسمونه البن لم يكن قد عرفه من قبل.. ولكنه رأى من تأثيره نشاطا وخفة فى البدن ثم عاد إلى دار إقامته فى عدن.. وفى يوم نزل المرض، فتذكر ذلك الشراب

الذى شربه مع أهل الحبشة .. فأحضر مقدارا من حب البن وحمصه وطحنه وطبخه فى الماء على نحو ما رآهم يفعلون .. وشرب منه فزال عنه المرض ، ورأى من خواص هذا الشراب الأسود وتأثيره أنه يذهب بالنعاس والكسل ، ويكسب الانسان يقظة فى التفكير ، ونشاطا فى العبادة .. ولم يستأثر الشيخ بهذا الشراب الطيب النافع لنفسه .. بل صار يصفه ويقدمه لأصحابه واتباعه من رجال الطريق .. فكانوا يستعينون به على السهر .. وقيام الليل فى العبادة والذكر .. وأحبوه وداوموا عليه نظرا لتأثيره الذى خالط أمزجتهم ، وسيطر على حواسهم ، وأرادوا أن يضعوا لهذا الشراب اسما فسموه «القهوة» .. قهوة الصالحين . إذ أن القهوة اسم للخمر عند العرب ، وكانت شراب الشعراء والخلعاء وأهل المجون ..

ونقل هؤلاء الشيوخ المتصوفة «القهوة» إلى مكة حين كانوا يقصدونها للحج ، فاستساغها فريق من الفقهاء والشيوخ ، وشربوها وأباحوا شربها للناس .. وأنكرها فريق آخر منهم وشددوا النكير عليها ، وعلى الذين يشربونها ويصنعونها .. كأنها الخمر أو أشد حرمة ، وقامت بين الفريقين مجادلات ومصادمات .. وكل فريق يتعصب لرأيه ، ويغالى فى تلمس الأدلة عليه ، حتى بلغ بالمعارضين أن ابتدعوا حديثا فى ذلك عن النبى ﷺ يقول : من شرب القهوة يحشر يوم القيامة ووجهه أسود من أسافل أوانيها ..

وفى القرن العاشر للهجرة .. ظهرت القهوة فى مصر .. وكأن أول

ظهورها فى رواق طلبة العلم من اليمن بالأزهر .. وكان من عادتهم أن يسهروا الليل فى المذاكرة والمدارسة، وأن يقيموا حلقات الذكر فى ليالى الأثانين والجمع، ومن الطبيعى أن تكون قد وصلت إليهم القهوة بواساطة إخوانهم القادمين من عدن .. فصاروا يشربونها لتساعدهم على السهر والنشاط للذكر طول الليل .. وكانوا يضعونها فى مأجور كبير من الفخار .. ثم يقوم شيخ الحلقة بتوزيعها عليهم فى فناجين صغيرة حتى ينال كل منهم نصيبه على السواء، ومن رواق اليمن بالأزهر خرجت القهوة واشتهرت بين أهل الطريق الذين يسهرون الليل فى العبادة، والشيوخ الذين يقبلون على القراءة والدراسة، ثم ذاعت بين العامة وشاعت، وأنشأ الناس دكاكين لتقديمها أشبه بالحانات .. وكانت كما يؤخذ من تعبير الشيخ الشعرانى تعرف ببيوت القهوة ..

وكما وقع بمكة وقع فى مصر، فإن فريقا من الفقهاء وعلماء الأزهر أنكروا هذه البدعة وحرموا هذا الشراب الذى يؤثر فى حواس الناس تأثيرا مفتعلا .. وانقلب الناس إلى فريقين متصارعين : فريق الفقهاء الذين يشددون النكير على الذين هاموا بالقهوة ويستحلونها، وفريق الصوفية الذين هاموا بالقهوة ووجدوا فيها شرابا حلالا يعينهم على السهر للعبادة والذكر والتجلى فى الطريق إلى الله، وكثيرا ما كانت تقوم المشاحنات بين الفريقين، وكثيرا ما كانت هذه المشاحنات تتحول إلى معارك يراق فيها الدم وكان

الحكام يضطرون إلى التدخل فى الأمر ، فمرة يأمرون بتحريم القهوة وشربها ، ومرة يأمرون بإباحتها وحلها وترك الناس على هواهم فى شأنها ..

ويقدم لنا الشيخ الشعرانى وهو من أئمة التصوف فى كتابه «لطائف المنن» صورة ساخرة لموقف الفقهاء من شرب القهوة فى القرن العاشر للهجرة ، ويندد بموقف هؤلاء الذين يحرمونها فيقول : إنهم يستحلون الغيبة والنميمة وأكل الحرام ، ولكنهم ينفرون من شرب القهوة ويستقبحونها .. ويضرب الشعرانى مثالا لذلك بشخص كان يغتاب الناس ليلا ونهارا ، ويمزق أعراض العلماء والصالحين ، فقال له صديق : اشتر لى بهذا العثمانى قهوة أشربها ، فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، والله لو ضربت بالسيف ما دخلت بيت القهوة أبدا ..

وكتب الشيخ الجبرتى المؤرخ فى ترجمة الشيخ «أحمد الحماقى» أحد علماء الأزهر فقال إنه كان صديقا لعلى بك الكبير حاكم مصر ، وكان إنسانا دمث الأخلاق حسن العشرة صافى الطوية عالما بفروع المذهب ، ولكنه كان لا يتحاشى الجلوس على القهاوى ، وكان إخوانه من أهل العلم ينقمون عليه ذلك فلا يبالى اعتراضهم ، ولقد ظل علماء الأزهر يرون الجلوس على القهاوى نقيضة تزرى بالكرامة والمروءة ، حتى وفد على مصر السيد جمال الدين الافغانى فجلس على القهوة وجعلها رواقه الذى يبث فيه تعاليمه إلى الملتفين

حوله من طلاب المعرفة والعلم.. فزال بذلك الحرج من النفوس، وصار الجلوس على القهوة فسحة المشايخ والمتصوفين..

وفى الحق أن للصوفية الفضل فى إذاعة القهوة وتعميم شربها بين الناس، لأنهم أشد تأثيرا فى العامة، وبخاصة فى الطبقات العاملة، ولأنهم فرضوها بمزاولة الطاعة ومداومة العبادة،.. وخلعوا عليها صفة الصلاح فسموها شراب أهل الله، وكما تفنن شعراء المجون فى الحديث عن القهوة الخمرية، ونشوتها وما تفعله بالألباب.. فقد انطلق شعراء الصوفية يتسببون فى هذه القهوة البنية أو القهوة الأهلية ويتغنون بأوصافها ومن ذلك قول شاعرهم:

شراب أهل الله فيها الشفا ... لطالب الحكمة بين العباد
نطبخها قشرا فتأتى لنا ... فى نكهة المسك ولون المداد
فيها لنا تبر وفى حاتها ... صحبة أبناء الكرام الجياد
كاللبن الخالص فى حله ... ما خرجت عنه سوى بالسواد

وقول شاعرهم أيضا:

وقهوة لا هم تبقى إذا ... قابلك الساقى بفنجانها
لا يوجد الغم بحاناتها ... قد خضع الفم لسلطانها
بمائها نغسل أكدارنا ... ونحرق الهم بنيرانها
يقول من أبصر كانونها ... أف على الخمر وأدنانها

على أية حال فقد أصبحت القهوة مشروبا محليا لسائر طبقات الشعب فى مصر على الرغم من أنها لا تزرع البن ولا تنتجه،

وأصبحت لها مشارب عامة فى جميع الشوراع والحارات، وفى المدن والقرى وعلى مشارف الطرقات.

وانتقلت القهوة إلى الشام وإلى تركيا، وإلى سائر بلاد العالم الإسلامى وأنشىء أول مقهى فى تركيا عام ٩٦٢ للهجرة أنشأه رجلان من سوريا تحت القلعة كما يقول المستشرق جورج يعقوب.. ويبدو أن الاتراك قد أقبلوا على القهوة فى شغف.. واتخذوها شرابهم المفضل على كل شراب، فقد كتب أحد الرحالة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر للميلاد يتعجب من أقبال الأتراك على هذا الشراب الأسود الذى يسمونه بالقهوة فيقول: وجرت العادة فى كل صباح وفى الأماكن العامة أن يجلس القوم وأمام كل شخص منهم أناء فخارى أو صينى عميق وبداخله هذا الشراب الأسود الذى يشربونه ساخنا..

ثم كانت القهوة هدية الشرق إلى الغرب، وتحية العالم الإسلامى إلى سائر العالم فى أنحاء الأرض، فالأتراك هم الذين أدخلوا القهوة إلى أوربا، وأن كان ذلك من غير قصد.. وكان ذلك حين غزت جيوش السلطان سليمان القانونى أوربا.. واندفعت حتى ضربت الحصار حول «فينا» فلما انسحبت من هذا الحصار خلفت وراءها كميات كبيرة من البن، وكانت بين زادها للتموين.. فأخذها النمساويون وصنعوا منها القهوة كما يصنعها الاتراك ومن ثم عرفت القهوة فى دول أوربا.. وذاعت بين شعوبها وأصبحت لها مشارب

عامة .. وبخاصة فى المانيا .. حتى أنها قضت على المشروب الألمانى القديم الذى كان يعرف باسم « هرزيبراى » وهو صنف من البوظة التى كانت منتشرة بين طبقات الشعب ، وهكذا صنعت القهوة فى كثير من الأمم والشعوب حتى صارت مشروب العالم كله فى أنحاء الأرض ..

واليوم يجلس فنجان القهوة على عرش العالم بحق ، فهو مصدر العيش لمئات الملايين من الناس فى الدول التى تنتج البن وتصدره إلى العالم ، وهو كذلك مصدر الرزق لمئات الملايين من الذين يعملون فى مشارب القهوة فى العالم ، والذين يصنعون المعدات والأدوات والأوانى لتقديم فنجان القهوة ..

ثم هو الحاكم بأمره فى أمزجة مئات الملايين من سائر الأمم والاجناس اختاروا القهوة مشروبهم وتغلغلت بتأثيرها فى كيانهم ..

والذى لاشك فيه أن فنجان القهوة كان له أثر كبير فى مزاج المجتمع المصرى ، وكان عنوان المودة فى هذا المجتمع .. وهو التحية السائدة بين الناس عند التزاور ، ففنجان القهوة هو تحية كل إنسان لكل إنسان .

رحلة مع كلمة

البحث فى تاريخ الكلمات ممتع جدًّا للذهن والعقل ، والكلمات كالناس لها حياة وتاريخ ، وكم فى تاريخ الكلمات كما فى تاريخ الناس من عبر تذكر ، وأحاديث تروى ، ولرب كلمة يجد الباحث فى تاريخها وتطور معانيها ودلالاتها عبر القرون والعصور من المتعة الفكرية والعقلية ، ومن الإفادة والمعرفة ، ما لايجده فى حياة الأمم وأحوال الشعوب .

وعجيب جدًّا أمر هذه الكلمات .. إننا نخترعها .. ونبتدعها لتكون أداة نعبر بها عن أغراضنا ، ونؤدى بها مطالبنا .. ونتبادل المصالح فيما بيننا .. ولكنها لا تلبث أن تسيطر علينا . وتصبح القوة التى تصنع حياتنا . وتنظم علاقاتنا .. وتقارب أو تباعد بيننا .. وهى

التى تنفذ إلى سرائرنا فتعلنها ، وإلى أعماقنا فتجعل كل ما فيها باديًا للعيان . متداولا على كل لسان . وكان الشاعر بيرون يقول : العجب العجاب للحرف الضئيل يكتبه المرء ، فإذا هو عروة تضم كل عصر إلى تاليه . لا تنفصم على مر العصور وكر الدهور . وإذا هو أبقى على الزمن من الزمن يزول المرء . ويزول قبره . وكل ما كان إليه يعزى وينسب . وتبقى الكلمة التى صنعها الإنسان .

ولكن ليس لكل الكلمات هذا البقاء والنفوذ، فإن الكلمات كائنات حية تستمد حياتها مما يتمثل فى حياة الناس من نزعات ورغبات .. وما يخالط نفوسهم من حقائق وأوهام ، وما يتسلط عليهم من آمال وآلام . ومن هنا تكون حياة الكلمات من القوة أو الضعف . والنفوذ أو القصور . والبقاء أو الفناء على قدر ما تؤديه من الإفادة والتعبير عن حاجات الناس ومطالبهم ، ومدى ما تأخذ هذه الحاجات والمطالب من اهتمامهم . فبعض الكلمات تظهر على ألسن الناس ثم لا تلبث أن تختفى وتموت . وبعض الكلمات تبقى فى لسان أهلها مادامت مرتبطة بما لهم من مطالب ورغبات . وهناك كلمات يسعدها الحظ فتكون من قوة السلطان والنفوذ حتى تفرض نفسها على ألسن الناس فى مختلف الأمم ، وتبقى ممتدة مع الزمن .. تزول الأمم والدول وهى لا تزول .

مع كلمة من هذه الكلمات ذات السطوة والنفوذ والعمر المديد . عشت رحلة طويلة ممتعة للذهن والفكر عبر القرون والعصور

فطوفت معها أرجاء الأرض بين مختلف الأمم والشعوب . وحلقت إلى عنان السماء وبين مسارات الأفلاك والنجوم ، ثم انتقلنا من عالم الناس والأفلاك إلى عوالم الزرع والثمر والطير حتى انتهينا إلى عالم الموسيقى والغناء ، وهى فى كل هذا تعكس علينا إفادات مختلفة من المعانى والدلالات ، ثم هى مازالت بعد طول القرون وكر العصور تزداد مع الزمن جدة وقوة ، ونفوذًا وبسطة . على أنها مع هذا كله كلمة ضئيلة الحجم ، ضئيلة الجرم ، يلقى بها اللسان فى يسر وسهولة من أدنى الحلق ، وأعنى بها كلمة « برج »

كلمة عربية :

وكلمة « برج » كلمة شائعة بلفظها وبمعانيها ودلالاتها المختلفة فى كثير من لغات العالم . فهى ذائعة فى اللغات السامية والأوربية والهندية ، ويرى بعض المستشرقين أنها ترجع فى أصلها إلى كلمة (بوركس) اليونانية أو كلمة (بوركوس) اللاتينية . وهذا وهم لا دليل عليه . وكل الدلائل تشير وتؤكد أن الكلمة ذات أورمة عربية صحيحة . وقد وردت فى القرآن الكريم بلفظ الجمع فى معنيين مختلفين ! الأول : البرج بمعنى الحصن فى قوله تعالى « أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

والثانى : البرج أحد أبراج السماء فى قوله تعالى « والسماء ذات البروج » على أن وجود الكلمة فى العربية أسبق وأوغل فى القدم من

عصر القرآن . فقد وردت الكلمة فى العبرية والآرامية ، كما وجدت فى النقوش السبئية القديمة بمعنى الركن أو الحصن المرتفع ، وكانت اليمن فى القديم بلد القصور والحصون الشامخة ، وكان القصر أشبه بحصن منيع قوى الدعائم . ويعتبر قصر « غمدان » أول ناطحة للسحاب فى العالم . فقد ذكر المؤرخون أنه كان مكونًا من عشرين طابقًا . كل طابق عشرين ذراعًا ارتفاعًا .

ومادة (برج) تدل فى الأصل على الشىء البين المعلوم البارز للعيان . ولهذا أطلقوا كلمة « برج » على الركن العالى البارز من الحصن .. وكان هذا هو الأصل فى مدلول الكلمة . ثم توسعوا فى هذا المدلول فأخذوا يطلقون كلمة « برج » على الحصن . ومن هنا أصبحت كلمة حصن وتطلق على كل بناء فيه معنى التحصين الحربى ، وفى عهد الإقطاع الأوربى أخذوا يطلقون كلمة « برج » على كل مدينة حصينة . مثل بطرسبرج . وهامبورج . ولكسمبورج .. إلى آخر المدن التى لا تزال تحمل كلمة برج حتى الآن ..

والبرجوازية ..

وكلمة برجوازية التى يطلقها الاشتراكيون على الطبقة المستغلة ترجع فى أصلها إلى كلمة « برج » بمعنى مدينة وكان المقصود بالبرجوازيين المدنيين . أى سكان المدن فى عهد الإقطاع الأوربى .

فقد استطاع هؤلاء المدنيون أن يحصلوا من الملك على قوانين ودساتير تخلصهم من حقوق الأمراء الإقطاعيين وتجعلهم رعية مباشرة للملك . وعلى هؤلاء المدنيين اعتمد الملوك فى القضاء على سلطة أمراء الإقطاعيات والتخلص منهم . وكان هؤلاء المدنيون من التجار والصناع أصحاب المهن الحرة . ومن هنا تميزت هذه الطبقة فى المجتمع باسم البرجوازية . وكان المؤرخون قبل الثورة الفرنسية يقسمون المجتمع إلى ثلاث طبقات . الأشراف والبرجوازيين ، والشعب ، فلما قامت الثورة الفرنسية وقضت على الأشراف ورجال الكنيسة ومن إليهم من أصحاب الامتيازات ، قفزت طبقة البرجوازية إلى المكان الأول . وأصبحت صاحبة الامتياز فى المجتمع . وكانت لها السيطرة والاستعلاء فى العهد الملكىْ ، وبخاصة فى عهد الملك لويس فيليب الذى كان يسمى بالملك البرجوازى .. واليوم يطلق الاشتراكيون كلمة « البرجوازية » على الانتهازيين والمستغلين من رجال المال الذين يعيشون على جهد المال . وأهل الأدب والفن يطلقونها على أولئك الذين كل همهم التمتع بالحياة المادية ولذائها ، وليس لديهم أى إحساس روحى بالأدب والفن ، أما البرجوازيون أنفسهم ، فالبرجوازية عندهم هى الاستقلال المادى والوجاهة الاجتماعية .

البناء الشامخ :

على أن كلمة برج لم تقتصر فى دلالتها على كل بناء له طابع التحصين الحربى . بل صارت تطلق على كل بناء شامخ يرتفع إلى عنان السماء لغرض حضارى أو زخرفى ، مثل الأبراج التى تقيمها الدول فى عواصمها ، لتكون بمثابة الشعارات المميزة ، لها ، ومن هذا برج بيزا فى إيطاليا . وبرج إيفل فى فرنسا . وبرج الجزيرة فى القاهرة . أو لغرض دينى مثل أبراج النواقيس التى تقام بالكاتدرائيات والكنائس . أو لغرض علمى أو عملى مثل أبراج الرصد وأبراج المراقبة بالمطارات .

وفى العصور الوسطى كانت الجيوش تستخدم أداة من أدوات الاقتحام فى الحرب تسمى « برج حصار » وهو برج متحرك يشيد من الخشب ويغطى بالحديد أو الجلد . وكان يتألف من عدة طوابق يعلو بعضها بعضًا . ويوصل إليها بدرج داخلى ينتهى بجسر خشبى يلقى على سور الحصن ليعبر عليه الجند إلى داخله ، وكان الجند يحتمون فى هذا البرج . ثم يدفع إلى الاقتراب من حصون العدو أو المدن المحصنة بالأسوار . فيقذفها الجنود من هذا البرج بالسهام والأحجار وغيرها .

من الحرب إلى السلام :

ولكن كلمة « برج » لم تكن كلمة الحرب وحدها . ولم تعش بمعناها فى نطاق الحصون والاقتحام والقتال فحسب . بل خرجت إلى رحاب السلام . فصارت تطلق على البيت الذى يقام لتربية الحمام . وأبراج الحمام معروفة منتشرة فى بعض المناطق بمصر ، وقد سمى بيت الحمام بالبرج لأنه فى بنائه يشبه برج الحصار الذى كان يتخذ فى الحروب .

وانتقلت كلمة برج إلى عالم الأنغام والموسيقى . فقد أطلق الموسيقيون على كل بعد بين نغمتين إحداهما من النغمات السبع الأساسية اسم « البرج » فيقال مثلا « برج الراست » عند الاستقرار على نغمة الراست أم انتقالا إليها من النغمة التى تليها ثقلا ، والبعض يسمى بروج النغم بردات جمع بردة .. ويستعملها المحدثون بدلا من بروج ..

وفى عالم الزروع والثمار والفاكهة كان لكلمة « برج » مجال فسيح ، فهى تطلق على كل صف من الحب فى سنبلة القمح ، وكل مايماثلها مما تكون الحبوب فيه صفوفا كل صف على حده . وهى تطلق أيضًا على شريحة من فواكه معينه وهى الفواكه المقسمة بالطبيعة أقسامًا مثل البطيخ والبرتقال وما إلى ذلك .

برج السماء :

ومن الأرض حلقت كلمة « برج » إلى عنان السماء ، واتخذت لها مكانًا فسيحًا .. حتى وصف القرآن الكريم السماء بأنها ذات البروج وبروج السماء التى يشير إليها القرآن ، هى منازل الشمس فى رأى العين وعددها اثنا عشر برجًا .. ولها صور وأشكال سماها بها علماء الهيئة وهى : الحمل بفتحتين .. والثور .. والجوزاء .. والسرطان .. والأسد .. والسنبلة .. والميزان .. والعقرب . القوس .. والجدى .. والدلو .. والحوت .. وهى مقسمة على فصول السنة الأربع الربيع والصيف والخريف والشتاء .

إنها رحلة طويلة شاقة بين الأرض والسماء . ولكنها رحلة ممتعة للذهن والفكر كما قلت لك .. على أنى لم أقطع الرحلة كلها مع كلمة برج، فمازال هناك شوط أوسع وأمتع .

وحدة الروح القومية
بين شعب مصر

نحن الآن فى الهزيع الأخير من القرن العشرين .. وهو القرن لذى يتخذه العالم عنوانًا لحضارته ..

ومابلغ من تقدم مادى اخترق به الحجب .. واقتحم الحواجز .. ألغى مسافات الزمن .. ومازال يروم ماهو أنأى من هذا وأبعد .. على أن ارتباط العالم بهذا التاريخ فى بدايته كان ارتباطًا دينيًا وحيًا .. إذ اقترن بميلاد السيد المسيح نبى المحبة ورسول المرحمة .. لكنه تحلل من هذا الارتباط الروحى ليبنى حضارته بالعلم والآلة المنفعة .. وليكيف نفسه بمظاهر هذه الحضارة المادية .. وهى لحضارة التى بلغت ذروتها فى هذا القرن العشرين .

ونحن فى مصر نسير مع العالم فى الارتباط بهذا التاريخ .. ونقدر

مسيرتنا على طريق الحياة بأيامه وأعوامه .. ولكنا لانرتبط فيه ارتباطًا روحيًا ولا حضاريًا .. فإن روحنا أعمق من هذا وأعرق .. وحضارتنا أنأى كثيرًا وأبعد .. فقد تكونت هذه الروح من تأثير المناخ والوسط الطبيعى ، سماءً وماءً وأرضًا فى حياة أجدادنا الأولين .. وهى التى بدأنا نبنى بها حضارتنا على ضفاف النيل منذ ذلك الزمن الذى يترامى وراء حدود التاريخ .. فلا ندرى له حدًا معلومًا .. وإن كنا نجازف فنقدره بسبعة آلاف من السنين .

هذه الروح التى تكونت من تأثير الوسط الطبيعى فى شعب مصر .. كانت قوام حياته .. وارتباطه بمفهوم الحياة وما بعد الحياة .. وكانت مظهر حضارته وعلمه وتفكيره وتحديد موقفه أمام هذا الكون الهائل العظيم .. وكانت مصدر عاداته وطقوسه وأساطيره .. وما هناك من معتقدات خفية هى حكمة الجماعة الإنسانية فى فهم هذا الوجود .. والكون .. فهى روح قومية صحيحة ملأت وجدان الشعب .. وحفظت له وجوده على امتداد الزمن فلم تستطع قوة غازية .. ولا أمة فاتحة أن تقهر هذه الروح .. وأن تزعزع شخصيته .. وأن تغير من وجوده .. ولقد تعاقب على مصر الفاتحون والغزاة من الآشوريين ، والبابليين ، والفرس ، والروم واليونان ، ثم العرب والأتراك ، والفرنسيين والانجليز .. ومنهم من أقاموا فى مصر قرونًا وملكوا وحكموا.. ولكنهم لم يستطيعوا أن يغيروا من شخصية الشعب المصرى .. ولا أن يقهروا فيه هذه الروح

القومية .. بل إنه بقوة هذه الروح استطاع أن يمتصهم وأن يحول كل ماخلفوا من أثر إلى شيء بقى فى ذاتهم وكيانهم .

فوحدة الروح فى شعب مصر هى التى حفظت له وحدة الوجود .. ووحدة التاريخ .. ووحدة المشاعر والعواطف والارتباط بقوميته .. ولقد اعتقد المصريون فى المسيحية .. واعتقدوا فى الإسلام .. ولكن هذا الاعتقاد لم يشطر الروح المصرية .. ولم يخلخل وحدة هذه الروح فى الشعب .. وإنك لتجد هذا واضحًا فيما يبدو من عادات المصريين وتقاليدهم ومعتقداتهم فى احتفالاتهم الدينية وتكريم الأشخاص المعتقدين فيهم .. وحسبك أن ترى مايجرى فى موالد الأولياء والشهداء للمسلمين والمسيحيين من عادات وطقوس واعتقادات ، لتتبين صلتها القوية بالطقوس الفرعونية التى كانت تقام لآلهة طيبة فى ذلك الزمن البعيد .. وحسبك أن ترى مثلا مايقع فى مولد الشيخ أبى الحجاج الأقصرى الذى يحتشد المسلمون والمسيحيون للاحتفال به .. فإنك ترى العادات والطقوس التى تقع فى هذا الاحتفال .. ليست إلا صورة لما كان يقام فى مصر الفرعونية لآمون .. فأبو الحجاج حامى الأقصر فى العهد الإسلامى .. وكان آمون إلهها وحاميها أيام الفراعنة .. وهم فى هذا المولد ينحرون عجل القربان كما كان الشأن فى احتفال آمون .. ثم يخرجون لزفة القارب الذى صنع على صورة قارب آمون .. وهم يغنون ويرددون أناشيد آمون .. والأساطير التى تحكى عن (طرزة) بنت القيصر

التى تزوجها أبو الحجاج .. تتصل بكرامات الشهداء المسيحيين .. والأولياء المسلمين .. وبعد هذا فلا ننسى أن مسجد أبى الحجاج هو جزء من معبد آمون .

وفى مصر أولياء وشهداء كثيرون يعترف لهم المسلمون والمسيحيون بالكرامات .. ويقدمون لهم النذور والقربان على السواء .. فسان جورج الثاوى فى مصر القديمة ..هو الأجيوس جورجيوس عند الروم الأرثوذكس وهو مارى جرجس عند المسلمين وجميعهم يعتقدون فيه شفاء المرضى وإعادة العقل للمجانين .. ويقدم إليه المسلمون الهدايا من الشمع والزيت .. وكذلك الشهيد أبو سيفين فى الأقصر .. وأبو جرج فى ميت دمسيس وغير ذلك من الشهداء والأولياء .. وهذا كله مما يدل على وحدة الروح فى حياتنا .. ووحدة الزمن فى تاريخنا .. وإن تعاقب الغزاة والفاتحين علينا وتعاقب المدنيات التى وردت إلينا .. لم يغير من تأثير الوسط الطبيعى سماءً وماءً وأرضًا فى حياة المصريين .. وهذه هى الوحدة الروحية التى بنينا بها حضارتنا واحتفظنا بوجودنا .. وستبقى قوتنا على طول الزمن وامتداد التاريخ .

إن أعظم يوم فى تاريخ مصر هو ذلك اليوم البعيد الذى لانعرف موضعه ولا موقعه من التاريخ ..

اليوم الذى عثر فيه المصريون الأولون على النيل الخالد .. ورأوا مياهه المتدفقة تغمر الأودية .. واكتشفوا على ضفافه المرعى

لخصب .. والأرض الصالحة للاستثمار والاستقرار ففى ذلك اليوم بدأت حياة المصريين شعبًا يرتبط وجوده بكل ما يمنحه النيل لأبناء هذا الشعب من خصب وإنماء .. وبدأت الحضارة تظهر فى تلك البقعة من الأرض يوم لم تكن هناك حضارة فى أية بقعة من الأرض .

من عطاء النيل الفياض تكونت روح الشعب المصرى ، ونضجت إنسانيته وشعوره بالحياة .. وهذا هو سر النزعة الإنسانية العميقة التى تهز وجدان هذا الشعب دائمًا فى المواقف الإنسانية ، والاستجابة للموقف الإنسانى نحو القريب والبعيد .. ونحو من يعرف ومن لا يعرف .. ولعلك لا تجد شعبًا يعطى من نفسه ما يعطى شعب مصر .. فهو أسرع ما يكون فى مد يده بالعطاء .. وإن كانت به حاجة إلى ما يعطى .. ثم هو لا يسأل عن مدى الاستحقاق والحاجة عند من يعطى .. ألسنا نرى القاهرة قبلة لكل وافد .. ومثابة لكل لاجىء ومأوى لكل قاصد ؟ . ينزل بها الغريب فيجد فيها وطنه وشعبه .. بل يجد ما هو أكرم وأسمح .. وفى فيض من هذه السماحة توطن الكثيرون من أبناء الأقطار المجاورة .. وعاشوا فيها لا نزلاء أو مهاجرين بل أهلا ، لهم كل الإكرام .. إقامة وعملا ورعاية كريمة لا يمكن أن تكون إلا فى مصر .. ومن فيض الروح الإنسانية التى هى روح شعب مصر .

والنيل بعطائه الجزيل فى الخصب والنماء والحياة ، هو الذى ملأ وجدان الشعب المصرى بهذا الشعور القوى بالحياة . فهو شعب

يعمل للحياة دائمًا .. الحياة المنبعثة من أعماق الزمن ، والممتدة مع أبعاد الزمن .. وحسبك أن تنظر إلى الفلاح المصرى وهو يعطى جهده وعرقه للأرض ليبعث فيها الحياة .. ويقول: لقد زرع من قبلنا فأكلنا .. ويجب أن نزرع حتى يأكل من بعدنا .. إن هذا الفلاح الطيب الذى يعيش بفطرته لا يشعر بالحياة على أنها الحياة الخاصة به .. ولكنه يشعر بها على أنها حياة الجنس الممتدة بوجوده .. والتى تتمثل فى ماضيه وحاضره ومستقبله .. بل إنك لتجد هذا الشعور بالحياة يتجلى عند ذلك الفلاح .. وهو يعطف على العود المائل فى زرعه .. أوالنبتة الزابلة فى أرضه .. يحاول أن يبعث فيها الحياة .. وأن يرد إليها الصحة والعافية .. وكأنه يعطف على ولده الذى ينشد له أقوى مظاهر الحياة .

هذا الشعور القوى والعميق بالحياة هو الأساس الذى قامت عليه حضارة مصر .. والمعنى الذى أراده شعب مصر فى إقامة هذه الحضارة التى بدأ يقيم معالمها فى ذلك الزمن الذى يترامى وراء حدود التاريخ ، زمن الخيالات والأوهام والأساطير .. فليس صحيحًا ما يزعمه أولئك الماجنون الأجانب من أن الحضارة المصرية حضارة الموت وتمجيد الموت .. إنها على العكس حضارة الحياة وتمجيد الحياة .

فهذه الأهرام الشامخة ليست كما يزعم أولئك الواهمون قبورًا حصينة للموتى .. بل إنها حصون منيعة لحفظ الحياة والحرص على امتداد الحياة مع الزمن .. والصلة بهذا الوجود جسدًا وروحاً .. وقهر

الفناء الذى يحطم حياة الحى .. ويتلاشى بوجوده وذكره فى حياة الآخرين .. والدلائل على هذا تتضح فى صناعة التحنيط وما لهم فى هذا من علم وعبقرية .. ومازالت مثار الدهشة والعجب عند العلماء فى هذا العصر .. ثم فيما كانوا يضعونه من أطعمة إلى جانب الموتى فى قبورهم أو أهرامهم وتفكيرهم فى عودة الروح واتصالها بأولئك الذين نزلوا فى هذه القبور أو الأهرام .. والكتاب الذى نسميه بكتاب الموتى .. وما هو فى الحقيقة إلا كتاب الحياة .. وتمجيد الحياة .

وعندما بدأ الإنسان المصرى تفكيره الحضارى اتجه إلى الكون .. وكل ما يحيط به فى الوجود الذى يراه أو يتوهم أنه خفى عنه .. وذلك أنه أراد أن يفسر الظواهر الكونية، وأن يفهم أسرار الكواكب والأفلاك ليفهم حياته على امتداد هذا الكون، ويقدر موقفه ومدى ما يفيد لحياته منها .. وقصة إيزيس وإيزوريس ليست إلا قصة الحياة والماء الذى يعيد الحياة على رغم الموت .

هذه هى الروح التى تكونت فى طبيعة الشعب المصرى من أثر النيل وعطائه .. روح قوامها الإنسانية التى تعطى فى سماحة مثل عطاء النيل تمامًا .. وأساسها الارتباط بالحياة والحرص على بقائها واستمرارها فى قوة أقوى من عوامل الموت والفناء .. وهذه هى الروح التى عاش بها شعب مصر على امتداد ذلك التاريخ الذى نقدره بسبعة آلاف سنة وهو لاشك يمتد إلى ما هو أبعد من هذا وأعمق .. ومازالت هى الروح التى تتملك شعب مصر إنسانية

وشعورًا بالحياة .. وسيظل بهذه الروح الإنسانية الحيوية قويًا بذاته ، متمكنًا بوجوده .. ثابت الخطوات على طريقه .. شامخًا بإرادته .. فإنها روح لا تقهر ولا تغلب .

هاتف سماوى

الوجدان الدينى هو المصدر الأول للفن. الغناء والسماع، والرقص والتمثيل وما إليها من الفنون الرفيعة مبعثها هذا الوجدان، ومازال هذا الوجدان الدينى يفيض فى أغانينا وألحاننا، وما زلنا نستروح بنفحات هذه الأغانى والألحان التى تنبعث من الأعماق، وتتغلغل فى القلوب، وهذا هو الفن الذى يحلو لنا أن نعيش فيه غناءً وسماعًا طوال شهر رمضان.

وللصوفية يرجع الفضل الكبير فى ازدهار هذا الفن الدينى. وطبعه بهذا الطابع الروحى الذى يملأ قلوبنا بالصفاء والحنان.

فعلى طريق الوصول إلى الله أقام الصوفية للفن الغنائى دولة لها طابعها الخاص وشخصيتها المميزة، ولها أسلوبها وتأثيرها وسحرها

فى النفوس والقلوب، ومن العجيب أن الذين يكتبون تاريخ الموسيقى العربية، أو الشرقية، كما يتحرى بعض الباحثين فى التعبير لا يعنيهم أن يفسحوا للصوفية مكانًا فى هذا التاريخ، ولا يهمهم أن يذكروا ما لهم من أثر فى نهضة الموسيقى وتطوير الغناء، مع أن لهم فى هذا من الفضل الجليل، والعمل الأصيل، والتراث الحافل، ما يجب أن يثير اهتمام الباحثين.

فحياة الصوفية كلها شعر وغناء وطرب وسماع، وهم فى هذه الحياة لم يعيشوا معزولين عن المجتمع، منقطعين عن الناس، بل إليهم وحدهم يرجع الفضل فى الخروج بالغناء والموسيقى من حفلات القصور وسمر الخاصة إلى محافل العامة،.. وتأصيل هذا الفن فى البيئات الشعبية، فقبل أن يعرف الناس وسائل الإذاعة التى استشرت فى هذه الأيام، لم تكن جموع الشعب وجماهير العامة تتذوق الغناء والموسيقى إلا فى المواسم الدينية، والموالد النبوية، أو تلك التى تقام لذكرى الأولياء الصالحين،.. فى حلقات الذكر التى يقيمها شيوخ الطرق فى القرى لأهل الطريق السالفين، وفى ليالى شهر رمضان.

والصوفية هم الذين أغنوا الغناء والموسيقى فى العالم الإسلامى بمختلف المقامات والأنغام، فالألحان التى نغنيها اليوم ليست محدودة بتلك المقامات والأنغام التى صنعها الموصلى، أو ابن جامع فى بغداد أيام عهدها الزاهر، ولكنها أرحب من هذا وأفسح وأكثر تلوينًا

طريبًا والفضل فى هذا يرجع إلى الصوفية لأن انتشار طرقهم
عامعهم فى مصر والشام والعراق وفارس وتركيا والهند قد ساعد
لى التداخل والتمازج بين ألوان الغناء والموسيقى فى هذه الأقطار،
على خلق وحدة فنية من هذه الألوان ترتاح لها الآذان، وتهش لها
نفوس والأرواح، بين جميع شعوب العالم الإسلامى على الرغم من
تلاف اللغة والمزاج، فإذا قلنا إن تطوير الغناء والموسيقى فى العالم
عربى كان بفضل الصوفية وحدهم فلسنا فى هذا من المسرفين.

والصوفية هم أصحاب الفضل فى حفظ أصول الغناء العربى من
ضياع، ذلك أنه بعد سقوط بغداد أمام هجمات التتار المخربة فى
شرق، وسقوط قرطبة أمام جحافل الصليبية المدمرة فى المغرب،
ى كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية فى مطاوى النسيان، وكان
أنفضت مجالس الغناء الساهرة واندثرت مدارسه العامرة،
رتفعت أصوات الأنين تبكى المجد الزائل.. وتندب الهلال الآفل،
سى الناس كل شىء عن الغناء وصناعته، والعلم بأصوله
صطلحاته، وإنما ألقيت هذه الأصول مذكورة فى تلك الأنغام التى
ردد فى مجالس الصوفية ومحافلهم، وفى التواشيح والمواليا التى
يها المغنون المنشدون فى الموالد والمواسم الدينية، وقد جمع الشيخ
مد بن إسماعيل الشهاب، هذه التواشيح والمواليا بأنغامها
قاماتها فى كتابه (سفينة الملك)، وكانت هذه المجموعة هى الأصل
تدوين مقامات الغناء العربى فى أواخر القرن الماضى، بالإضافة

إلى بعض الأصوات والمقامات التى نقلها شاكر الدمشقى إ
القاهرة عن العرب الضاربين فى صحراء حلب.

وللصوفية فضل آخر على الغناء وأهل البراعة فيه، وذلك أن
بحكم اتصالهم الوثيق بالعامة وتغلغلهم فى مختلف الطبقات الشعب
قد أتاحوا الفرصة دائماً لظهور أصحاب الأصوات الرخي
والمواهب الفنية من أبناء هذه الطبقات فى حلقات الذكر ومحاف
الإنشاد، ومن ثم كانت هذه الحلقات والمحافل مدارس تخرج فيـ
أعلام الغناء وشيوخ الملحنين، الذين ملكوا زمام الصناعة فى هـ
الفن وانتهت إليهم رياسته، ويكفى أن نعرف أن أعلام الغنـ
والطرب والتلحين الذين أقاموا دولة الفن فى مصر والعالم العربى
تخرجوا فى هذه المدرسة، وكان لها الفضل الأول فى صقل مواهبهـ
وتثقيف حناجرهم.. فعبده الحامولى، ومحمد عثمان، والشيخ يوسـ
المنيلاوى، والشيخ المسلوب،.. والشيخ سلامة حجازى، وأم كلثـ
والشيخ على محمود، والشيخ زكريا أحمد.. كل هؤلاء وغيره
كثيرون قد بدءوا حياتهم فى حلقات الذكر يغنون التواشيـ
والموالياً، وينشدون الأهازيج والمدائح النبوية، ويمارسون ضرو
النغم المختلفة فى تلك البيئة الصوفية الحافلة بضروب الأنغ
والانسجام.

وأخيرًا فإن الصوفية طبعوا الغناء والموسيقى بطابع خاص
وأعنى به طابع الحنان الذى تذوب فيه النفوس وتهيم به الأرو

لك لأن الغناء عند الصوفية يقوم أصلا على التضرع والابتهال الرجاء فى الله ، مما يستوجب الرقة والحنان والصفاء الروحى ، ثم نهم يربطون الإنشاد بحركة الإيقاع فى الذكر ربطًا محكمًا ، والحرص لى الانسجام فى الانتقال من طبقة إلى طبقة ، ومن مقام إلى مقام ، ا يبعث فى النفس الانسجام والبشاشة ، ولا شك أن هذا الطابع صوفى قد سيطر على ألحاننا وموسيقانا إلى حد كبير .. وأنت إذا ا استمعت بأذن مصغية واعية إلى لحن من ألحان الشيخ زكريا أحمد و الشيخ سلامة حجازى ، بل إلى الألحان التى صنعها الفنان بد الوهاب أخيراً لأم كلثوم ، فإنك تجد نفحة الذكر واضحة فى ثير من المقاطع ، والطابع الصوفى بارزًا فى كثير من النغمات .

والناس على اختلاف طبائعهم يغنون ويسمعون ، ويشغفون لنغم الحلو والصوت الحنون ، إمتاعا للحس ، وإشباعا للنفس ، استجمامًا لرحلة الحياة الشاقة المضنية ، كما تنشط الإبل على صوت الحادى فى رحلة الصحراء القاسية .

أما الصوفية ، فإنهم يغنون ويسمعون ويرقصون وجْدًا وصبابةً هم فى غيبة عن حواسهم ونفوسهم ، يحدوهم إلى ذلك نار الشوق ى الله التى تحترق بها قلوبهم - كما يقول الغزالى - من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى ، وأرواحهم من تنسم روح الوصال كرى ، فكل غايتهم أن يتحقق وجودهم فى الوصول إلى الله .

ذلك أن الصوفية يعتبرون الغناء والسماع ، أحد المقامات على

الطريق فى الوصول إلى الله، وهم يسمون هذا الطريق بسفر أوحج، ولأجل تحقيق الوصول فى هذا السفر لابد من المجاهدة فى قطع عدة مقامات كل مقام منها أشبه بمرحلة، وكل مرحلة قائمة على التى تقدمتها، وهى على التوالى مقامات: التوبة، والورع، والزهد والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا، وهذا المقام الأخير يسمونه راحة النفس، أو السلام الروحى، والتوصل إليه يكون بالوجد والحبور والغناء والسماع، والحبور عندهم هو السماع، وبهذا المعنى يفسرون قول الله تعالى... (فهم فى روضة يحبرون) أى يسمعون

ويفلسف الصوفية مآربهم من السماع فيقولون إنهم يسمعون (الهاتف السماوى) فى آية قرآنية ترتل، أو شعر ينشد، أو موسيقى تردد، فإن الله أوحى إلى مخلوقاته كلها أن تسبحه بلسان الحال أو بلسان المقال، فالإنسان والطير والحيوان والأشجار كلها ترد نشيدًا عامًا به تسبح الله، وعلى هذا فالموسيقى (هاتف سماوى يحدو المرء إلى التوجه والسعى نحو الله، فمن أعارها سمعه وهو راغب فى الشهوات وقع فى الخطيئة وارتطم فى حمأة الشهوات

وعلى أية حال فإن فلسفة الصوفية فى السماع والغناء لا ترجع إلى أصول إسلامية صحيحة، وليست لها شواهد وأدلة واضحة صريحة، ولكنها ثمرة فكر طارئ على الثقافة الإسلامية، وإن حاول علماء الصوفية أن يلبسوها لباس الإسلام وأن يتلمسوا لها الشواهد والأدلة الإسلامية بالتمحل والتأويل، ومن رأى المستشرق

نيكلسون) أن الصوفية تأثروا فى هذا بآراء أفلاطون وفيثاغورث غيرهما من فلاسفة اليونان، ومجمل هذه الآراء أن الموسيقى تثير ى النفس ذكرى الأناشيد السماوية التى كانت تسمعها الروح يوم ن كانت متصلة بالخالق، وقبل نفيها فى هذا الجسد..

فإذا كان الصوفية يصفون هذا الفن بأنه هاتف سماوى، وإذا ان فلاسفة اليونان يقولون إنه أناشيد السماء للروح، فنحن نتجاوز هذا المعنى حين نصف هذه الأنغام والألحان بأنها أنغام من سماء، وهى الأنغام التى يقدم منها صديقنا الفنان (محمود كامل) اذج مختارة رائعة من الإذاعة على امتداد ليالى شهر رمضان، يصل حياتنا بهذا الفن الرفيع ويفعم أرواحنا وقلوبنا بهذه الأنغام الألحان التى تطهر الأرواح وتشيع فى النفوس السمو والصفاء.

* * *

حلال أم حرام

ولابد من وقفة فى نطاق الحلال والحرام، ونحن نتحدث عن الغناء والسماع فى رحاب الدين والتصوف والقربى إلى الله مما عرضنا فى مجالسه ومحافله فى اليوميات التى تتابعت خلال شهر رمضان، فقد تلقيت عشرات الرسائل يسألنى أصحابها:

أهذا حلال أم حرام؟

والذين يسألون هذا السؤال كما يبدو لى من رسائلهم رجلان رجل يعيش بطبع صارم. فهو يأخذ حياته فى الدنيا بهذه الصراه ويرجو أن تكون حياة الناس كذلك، بل إنه ليعتقد أن حياة الأبرا فى الجنة أرفع وأشرف من أن يدخلها المرح والطرب. مثل هذ الرجل يلقاك دائمًا بنظرة موحشة شذرة كأنه قاض سماوى هبط إ

هذا العالم ليحكم بأقصى العقوبة على كل من يعرف . ومثل هذا الرجل يقطع ولا شك ذنب هرته إذا هو صادفها تعبث به . فبالله سلْه من علم الهرة أن تعبث بذيلها ؟.

ورجل مرهف الإحساس بالدين وهو أيضا مرهف الإحساس بالفن ، فهو يريد أن يطمئن دينًا حتى يشبع إحساسه الفنى من الغناء والسماع وهو يسأل ويود أن يكون الجواب بما يملأ نفسه بالاطمئنان .

وعلى أية حال فإنها قضية مطروحة من قديم.

ولقد قلت من قبل إن الصوفية يتخذون من الغناء والسماع مقامًا على طريق الوصول إلى الله ، ولهذا جعلوا حياتهم كلها شعرًا وغناءً وطربًا وسماعًا ، وإنهم بهذه الفلسفة عاشوا يتواجدون على طريق الوصول والقربى إلى الله ، حتى قال أبو طالب المكى رواية عن الجنيد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة - يعنى الصوفية - فى ثلاثة مواطن : عند الأكل ، لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند المذاكرة ، لأنهم فى مقامات الصديقين وأحوال النبيين ، وعند السماع ، لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقًا .

ولكن هذه الفلسفة الصوفية أثارت ثائرة الفقهاء وعلماء الشريعة ، فانبروا ينكرون أن يكون الغناء والسماع ، وما يظهره الصوفية من الوجد والتواجد طريقًا وقربى إلى الله ، ويندون بما يصنعه الصوفية فى مجالسهم ومحافلهم ، ويقولون إنه خروج على

الشرع، ولهولا يبرره سند صحيح من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ووقف الصوفية من جانبهم يدافعون عن طريقهم، ويستنطقون الآيات والأحاديث بالتأويل للتدليل على حسن سلوكهم، وسلامة طريقهم، ويقولون إن علماء الشريعة أهل فقه وظاهر من الكلام، يأخذون بالقشور لأنهم يستدلون بظاهر اللفظ، ويقفون فى غايتهم عند الرسوم العقلية المحدودة، لأن دليلهم العقل المحدود، أما الصوفية فأهل حقيقة ومعرفة، والمعرفة طريقها القلب، ودليلها الوجدان والذوق، فأفعالهم وأقوالهم أسرار لا يفهمها إلا أهلها وهيهات أن يفهم أهل الظاهر مما لدى أهل الباطن.

وجاء الشيخ «أبو حامد الغزالى» فحاول أن يوفق بين الفريقين وأن يقف موقفًا وسطًا بين الجانبين، فخصص فى «الإحياء» كتابًا مطولا عن السماع والغناء، أورد فيه حجج الفقهاء أهل الشريعة وأقوال الصوفية أهل الحقيقة، وبعد أن أطال الفقيه المتصوف فى التحليل والتعليل، وإيراد الشواهد والبراهين انتهى فى الحكم إلى أن السماع يكون حرامًا لمن غلبت عليه شهوة الدنيا، ومكروهًا لمن يتخذه مادة على سبيل اللهو، ومباحاً لمن لاحظَّ له إلا التلذذ بالصوت الحسن، ومستحبًا لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك منه إلا الصفات المحمودة، وتلك هى مرتبة أهل التصوف فى سماعهم ومواجدهم.

ولكن هذا الصنيع من الغزالى لم يقنع علماء الفقه، وإن أشبع أهل التصوف، فتصدى له الإمام الفقيه «جمال الدين بن الجوزى» البغدادى فى كتابه «تلبيس إبليس» وانهال على أقواله بالتجريح وقال إن أبا حامد الطوسى قد احتج للصوفية بأشياء نزل فيها عن رتبته من الفهم.. ولقد عجبت من هذا الرجل، وليس العجب من «تلبيس إبليس» على الجهال، بل على الفقهاء الذين اختاروا بدع الصوفية على حكم أبى حنيفة والشافعية ومالك وأحمد، رضوان الله عليهم.

وكذلك صنع الشيخ «ابن الحاج» فعقد فصلا طويلا فى كتابه (المدخل) عن الغناء والسماع وأورد فيه أقوال الفقهاء والصوفية وأنكر أن يكون الغناء والسماع قربى إلى الله انتهى إلى ما ابتدعه الصوفية اليوم من الإدمان على سماع الأغانى وآلات الطرب من الشبابة والطار والمعازف والأوتار حرام، ويجب منعهم من ذلك.

ثم ألف الشيخ أبو بكر الطرطوشى كتابًا خاصًّا فى هذا الموضوع سماه «النهى عن الأغانى»، وقد انهال فيه على الصوفية بالذم لأنهم يعقدون استباحة الغناء والسماع والرقص والتواجد، ويعتقدون أن ذلك يقربهم إلى الله تعالى، وقال إنهم فى هذا يخالفون العلماء والفقهاء وإجماع المسلمين ودعا لهم بالتوبة والهداية.

وفى الحق أن جميع أقوال الفقهاء وحججهم فى تحريم الغناء والسماع لم تجد شيئًا من الاهتمام، وكان أن ألقاها الناس وراء

آذانهم وأسماعهم فطويت فى مطاوى الكتمان والنسيان، ولقد أضعف موقف الفقهاء أمام الصوفية تلك الحياة التى كان يحياها المجتمع الإسلامى فى ازدهار حضارته واتساع آفاقه الثقافية. ففى الوقت الذى كان فيه الفقهاء يحررون الفتاوى بتحريم الغناء، ويندددون بمجالس الموسيقى والسماع، كانت أصوات الأوتار والمزاهر ترن صباح مساء فى قصور الخلفاء والأمراء، وأصوات الجوارى تنكسر فى رخاوة بالانغام الحلوة فى محافل أهل المثالة والوجاهة بين الناس، والموصلى يمثل فى قصر الخليفة الرشيد دولة فنية لا تطاولها دولة، ورجال الأدب يعكفون على تدوين مجالس الغناء وأخبار الجوارى والقيان، وأبو الفرج الأصفهانى يحمل إلى سيف الدولة الحمدانى مائة صوت مختارة بكل ما جرى فيها من دروب النغم وتقاسيمه، ويقدمها فى عشرين مجلدًا باسم كتاب «الأغانى» وهو كتاب ما زال أهل الأدب يعتبرونه إلى اليوم من قمم الأدب العربى.

فهذه الإباحة الفنية التى كانت تجرى فى قصور الخلفاء والأمراء وفى حياة الدولة تحت سمع الناس وبصرهم جعلت هؤلاء الناس يتحللون من تحرر الفقهاء وتشدد العلماء وينطلقون على هواهم فى الحصول على هذه اللذة الفنية بأى وسيلة من الوسائل، والناس على دين ملوكهم كما يقولون..

* * *

أغانى النيل

أثارت العروض التى قدمتها الفرقة المصرية للآلات والأغانى الشعبية فى باريس إعجاب الفرنسيين، وهاموا بها حبًّا وشغفًا، وأطلق النقاد الفرنسيون على هذه الأنغام اسم موسيقى النيل، ووصفوها بأنها أنغام مصرية أصيلة، وقالوا إن أروع ما فى العروض الموسيقية والأغانى التى قدمتها الفرقة، شدة التآلف الذى يستغرق مشاعر السامع على الرغم من أنها موسيقى ارتجالية تعزفها الفرقة على الرباب، والمزمار والناى، والدربكة، والدفوف، وهى نفس الآلات التى كان يستخدمها العازفون فى مصر الفرعونية منذ ستة الآف سنة.

هذا الفهم لأغانينا وموسيقانا الشعبية الذى فطن إليه النقاد

الفرنسيون لم يفطن إليه أحد عندنا من رجال الفن والدارسين للموسيقى، وهم يسمعون الأغانى الشعبية صباح مساء، وكأنهم لا يرونها شيئا يستحق الدراسة والاهتمام، مع أنها تمثل روح مصر الأصيلة. وعواطفها الإنسانية التى عاشت بها على ضفاف النيل، تنشد الأمل والرجاء، وتغنى للزرع والحصاد، وتبتهل للآلهة فى الخير والنماء، فهى بحق موسيقى النيل وشخصية الأمة التى تعيش على ضفاف النيل منذ تدفق بالماء «حياة» للأرض و «حياة» للزرع، وحياة للإنسان، فكل ما فى مصر من أنغام وألحان وشدو وشجو إنما هو هبة من فيض النيل العظيم، والحق إن أعظم حدث فى تاريخ مصر، على امتداد الزمن هو اكتشاف النيل، ففى ذلك.. اليوم البعيد الذى لا نعرف موضعه ولا موقعه من التاريخ، والذى عثر فيه المصريون الأولون على النهر الخالد، وراء مياهه المتدفقه تغمر الأودية، واكتشفوا على ضفافه المرعى الخصب، والأرض الصالحة للاستثمار والاستقرار، فى ذلك اليوم بدأت حياة المصريين، شعبًا يرتبط وجوده بكل ما يمنحه النيل لأبناء هذا الشعب، من خصب ونماء، وبدأت الحضارة تظهر فى تلك البقعة من الأرض، يوم لم تكن هناك حضارة فى أية بقعة من الأرض، وبدأت حياة الفن والموسيقى والغناء، وبدأت تلك النبرات المبحوحة تنطلق من حناجر الكادحين على ضفاف النهر الخالد، وفوق الهضاب والجسور، وعلى الجداول والغدارن، وخلف القطعان فى المروج والحقول، وإلى جانب

سواقى الشادية الباكية، ومع حركات الشواديف الصاعدة
لهابطة، وهذا هو ما نسميه بالأغانى الشعبية، وليس هذا كله
لا من فيض النيل، وإلهام النيل لذلك الشعب الطروب.

غنى المصريون أول ما غنوا فوق مياه النهر، وهم يكافحون
يجدفون، فقد عرف المصريون صناعة الزوارق فى زمن مبكر جدًّا
ن التاريخ، وكانوا يصنعونها من البردى أو الحلفاء، ويغلفونها
القار، ثم أخذوا يصنعونها من جذوع الأشجار الخاوية، ثم من
لواح الخشب حيث صنعوا السفن الكبيرة للملاحة فى النيل، ثم
خرجوا بها إلى البحر الأحمر، وتدل الآثار التاريخية على أن نهر
لنيل هو أول نهر فى الدنيا ظهر فيه فن التجديف، فهناك صور تمثل
نوارب بمجاديف مرسومة على أقدم الآثار المنقوشة فى مصر، وقد
ظهر من تلك الرسوم البارزة أن الزورق النيلى كان فيه عشرون
بحدافًا يجلس عليها عشرون ملاحًا أو نوتيًّا، وهم يدفعون الزورق
بمجاديفهم، وعلى ضربات هذه المجاديف فى مياه النهر الهادئ
لوديع، يغنون ويهزجون بأنغامهم، ليجدوا فى نفوسهم نشوة
العمل، وليكافحوا تيار النهر المتدفق من أقصى الجنوب.

فأنغام النوتية أو المراكبية على مياه النيل كانت لاشك بداية
الغناء فى مصر، وكل الأغانى التى رددها المصريون على ضفاف النيل
كانت من وحى النيل وإلهامه وهبة من هباته، إنها أغانى الكادحين
الذين غنوا مع أنين السواقى ومع حركات الشادوف والآلات

الرافعة التى تغترف مياه النيل، وغنوا للزرع والحصاد، وهما هبة من هبات النيل، وغنوا وراء القطعان التى تغدو وتروح وتشبع وتتكاثر مما يمنحها النيل، وغنوا فى المروج والرياض لأنها هبة من خصب النيل، وغنوا للأرض وخصبها وما تحققه من نماء بفضل طمى النيل ومياه النيل، وغنوا للجداول المنسابة الرقراقة التى تتدفق بمياه النيل، وغنوا للحب والهيام والجمال، لأنها المعانى التى غرسها فى نفوسهم النيل، فكل الأغانى فى مصر هى بحق كما قال النقاد الفرنسيون أغانى النيل. وأنغام النيل، وأحب أن أقول لك إن .. أغانى الكادحين على مياه نهر النيل وعلى ضفاف النيل، وفى الأرض التى كانت هبة النيل، لم تكن فى ألفاظها مقصورة على وصف العمل الذى يمارسه العامل، بل إنها كانت تعبر عما يجول فى نفسه أو فى خاطره، أو الإحساس الكامن فى حناياه، كل ما هناك هو أن يكون نغمها وإيقاعها منسجمًا مع حركة العمل: فقد يكون المراكبى فوق مياه النيل يجدف ويكافح فى جر مركبه، وهو يشدو بأغانى الحب والهيام، وقد يكون الفلاح وراء محراثه يتصبب عرقًا وهو يغنى، ولكنه لا يذكر الثور والمحراث، وإنما يعبر عما فى نفسه من مختلف الأمانى والرغبات، والصبايا يعملن فى جمع القطن وأصواتهن الحلوة الشجية تردد أغانى الوصال وليلة الدخلة والصباحية، ولا يذكرن شيئًا عن القطن، إنهن يعربن عن آمالهن اللذيذة، وهى الآمال التى كانت عادة تتحقق إذا ما جاء القطن

المحصول الوفير.

وكذلك كانت أغانى الكادحين فوق مياه النهر، إنهم يتحدثون فى غانيهم عن الريح التى تملأ القلوع، وعن مياه النهر المتفق على دى السنين، ولكنهم يتحدثون أيضا عن الغربة والبعد عن لأحباب، واللهفة على يوم الوصول والوصال وعن حياة البحر ما فيها من متاع وبهاء، وعلى آية حال فإن الكلمات الأولى التى غناها النوتية أو المراكبية فى أول يوم ركبوا فيه مياه النهر لم تصلنا، إنما وصلتنا بعض التعبيرات التى كانوا يستخدمونها وهم يكافحون لمياه، وبعض المقطوعات التى كانوا يؤثرونها أو يستلهمونها فى غانيهم وأهازيجهم، ومازالت بعض هذه التعابير تتردد بيننا إلى ليوم، وقد كان المراكبية وهم يكافحون تيار النهر المتدفق من الجنوب إلى الشمال بالمجاديف، أو عندما كانت تتوقف الريح فلا تملأ القلع وتكون قوة دافعة للمركب، فيعولون على دفعها بالمزاريق أو بالجر بالحبال وهم يرددون أنشودة يقولون فيها:

هيلا هوب.. أتهيلا هيصا؟

وهى كلمات مصرية قديمة، أو قبطية، ومعناها الشغل، الشغل دخلنا الميناء، قربنا من الغاية، وقد توسع النواتىّ أو المراكبية فى هذه الأنشودة فيما بعد، ومازالوا يردونها إلى اليوم فيقولون:

الهـوب الهـوب الـنـوب
والهـواء شـق الـتـوب
الهـوب الهـوب الهـلاليب
والهـواء شـق الجـلاليـب

«والنوب» هو الذهب ويقصدون بذلك بلاد النوبة وهى بلا الذهب «والهلاليب» هى خطاطيف السفينة، والمعنى اشتغلو اشتغلوا فإن الهواء سيأتى شديدًا يشق الجلاليب، وترسى السفين على البر وترتبط بالهلاليب وقد انتقلت كلمة «هيلا هوب» إلى جمي الطوائف من العمال والكادحين فهم يرددونها إلى اليوم فى كل عمل شاق وفى النهوض بكل حمل ثقيل، فيقولون «هيلا هوب هيلا» وقد أخذ الشاعر شوقى هذه العبارة وجعلها مطلع أغنية فى إحدى رواياته لحنها وغناها المطرب محمد عبد الوهاب.

والأغانى الشعبية على العموم وعاء للعادات والتقاليد، ووعاء أيضا للغات قديمة، أو للكثير من كلماتها المأثورة، ونحن فى الصعيد مازلنا نسمع العمال وهم يغنون فى البر أو فى النهر فيقولون «رامسو يا رامسو» و «آمون يا آمون»، وهم بهذا يرددون كلمات قديمة جدًا، وإن لم يكن فى خاطرهم ما تنطوى عليه من المعانى والإشارات، فكلمة رامسو المقصود بها رمسيس أورع رمسيس، وآمون هو الإله آمون عند قدماء المصريين، وتعتبر أغانى النواتى

أو المراكبية فى النيل أحفل الأغانى المصرية الشعبية بالكلمات المصرية القديمة، وبالاصطلاحات التى مازالت جارية على ألسنتهم إلى اليوم، لأن أبناء النهر يعيشون بالوراثة مع النهر، فهم يتناقلون الأغانى والأناشيد والاصطلاحات بالوراثة جيلا عن جيل، فى نمط تاريخى متسلسل، فمازالوا إلى اليوم يرددون كلمات «الطياب والمريسى»، والتيار والمركب والسفينة والغليون والمنية أو المينا، إلى آخر تلك الكلمات التى ترجع أصولها إلى اللغة الهيروغليفية أو القبطية، كما كان شائعا فى مصر القديمة.

أما أغانى الملاحين فى النيل أو المراكبية وأبناء النهر فقد تطورت على امتداد السنين، وتنوعت عباراتها وموضوعاتها وما فيها من لمحات وإشارات وأنغام تفيض بالشدو الذى يفعم القلوب ويهز النفوس..

* * *

أغانى الكادحين

فى حنايا كل إنسان نهر خفى لا يراه أحد أبدًا مهما يكن نافذ البصيرة ، عالمًا بالخفايا والأسرار . إنه نهر ينبع من جوهر النفس ، وتركيب الروح ، وخيال الذهن ، ويتدفق دائمًا فى حنايا النفس الإنسانية بمنابع السرور والنشوة والبشاشة ، وكل المعانى التى تخلق التآلف والانسجام بين الإنسان والحياة التى يحياها ، والشواغل التى تحيط به على أن هذا النهر الخفى لا يفيض فيضه فى أعماق الإنسان ووجدانه إلا إذا تحرك ، وليس هناك مايحركه ويثيره إلا الطرب .

فالطرب وحده هو الذى يحرك ذلك النهر الخفى ويثيره ، بل يفجره فى نفس الإنسان والاستجابة للطرب طبع تدفع إليه الغريزة ، كلما وجد الإنسان نفسه فى ضيق أو شقاء أو رهق من

أعمال ، ولهذا نرى الإنسان يندفع بطبعه إلى الغناء وهو يؤدى من العمل ماينوء به الجهد ، لأنه بالغناء يستجلب الطرب ، ويحرك النهر الخفى فى نفسه ويثيره . وبهذا تتدفق فى حنايا نفسه ينابيع السرور والنشوة فلا يلبث أن ينسجم مع عمله ، ويتقبله وينشط لآرائه ، وينسى مافيه من جهد وعناء .

هذا الفلاح يغنى وهو يتصبب عرقًا وراء محراثه ، وهذا الزارع يصيح بالموال وهو يصارع الأرض بفأسه ، وهذا الحصاد يترنم بأنغام الحب والوصال . وهو يطوى الزرع بمنجله ، وهذا الراعى يقود القطيع بالشدو فى شبابته وهو يترنح فى أسماله . وإنك لتعجب إذ ترى عامل البناء يحمل فوق كاهله من أثقال الحديد والحجر ماينوء به الجهد ، وإنه ليصعد فوق ألواح « السقالة » طابقا بعد طابق ، وصوته يجلجل بالغناء فى توقيع رتيب وأداء منسجم ، وإخوانه من ورائه يرددون النغم فى نشوة وانسجام .. هؤلاء جميعًا وأمثالهم من الكادحين إنما يندفعون إلى الغناء ويسترسلون فى الطرب مع شقاء العمل وعناء الجهد ، ليحركوا ذلك النهر الخفى فى أعماقهم ، وليثيروا منابع السرور الكامنة فى حنايا نفوسهم ، فإذا هم فى انسجام وتآلف مع العمل يتقبلونه فى بشاشة وينشطون لأدائه فى نشوة وجذل .

وهذا الانسجام بين الإنسان وحياته . وبين الإنسان والعمل الذى يرهق طاقته ، والعناء الذى يستغرق جهده ، هو الأصل

والغاية فى مهمة الفن ورسالته إلى الحياة الإنسانية ، فالفن فى حقيقته إنسانى انبعث من طبيعة الإنسان منذ كان الإنسان ، ولايمكن أن يخرج من نطاق الطبيعة الإنسانية ، وأنا أقول الفن وأعنى الفن بجميع أشكاله وألوانه وزخارفه ، والواقع أن الطرب هو الأصل الأول لكل هذه الأشكال والألوان والزخارف ، فالإنسان غنى قبل أن يتكلم ، وكان الغناء أول لون عرفه من ألوان الفن ، لأن الإنسان صوت صائحًا قبل أن يرتاض لسانه على النطق بمقاطع الحروف والكلمات بزمن طويل جدًا ، وكأن العرب كانوا يشيرون إلى هذه الحقيقة حينما سموا الغناء صوتًا ، ومن الطبيعى أن يكون الإنسان فى حياته الأولى قد صاح بالألم قبل أن يصيح بالأمل ، فإن الألم رهن الحاضر ، والأمل قرين الغد ، وكان الإنسان الأول ابن يومه ، ولم يكن له غد يحرك خياله بالأمل .

فمنذ صوت الإنسان فى حياته الأولى ، وعندما جرحه الشوك على طريق الحياة صاح بالآه ووجد فيها راحة لنفسه ، وتجاوبًا وانسجامًا مع ألمه ، وما زالت الآه إلى اليوم تشق حناجر المغنيين وأهل الطرب ، ولقد نقش الإنسان ورسم وصور ، وقال الشعر وصاغ الكلام الموزون المنغم ، كل هذا ليثير النهر الخفى ، الكامن فى حنايا نفسه ، وليجد الانسجام والتآلف مع الحياة التى يحياها والناس الذين يعيش بينهم ، والعمل الذى يؤديه ويواجهه ، وما زال الإنسان يعيش بهذا الطبع الغريزى إلى اليوم ، فأغانى الألم ، أو

أغانى العمل ، أغانى الكادحين على طريق الحياة ، هى أول ماشدا به الإنسان من ضروب الغناء ، وأول ماحرك من نشوة الطرب فى نفسه ، وهى الأصل لكل ماعرف الإنسان من فنون الصوت والنوح والغناء ، وعندما غنى الإنسان الأول ، كان هو المؤلف والملحن المغنى ، أعنى أن وحدة العمل الفنى كانت متمثلة فى شخصه ، كما نقول فى التعبير الحديث ، ومن هنا كان غناؤه أصدق فى الأداء والتعبير ، وأقدر على تحريك النهر الخفى الكامن فى حنايا النفس ، من ذلك الغناء المصنوع الذى يقوم على تقليد العواطف والمشاعر ، ويكافح بكل الوسائل الفنية ليحرك مافينا من إحساسات ومشاعر ، ويهز نهر الطرب الكامن فى أعماقنا ، وكان الإنسان الأول يعتمد فى الغناء على الصوت وحده ، ولم يكن يستعين بأية آلة من آلات الدق أو النفخ أو الصفير ، لأنه لم يعرف هذه الآلات المساعدة إلا فى زمن متأخر ، أما فى التلحين فكان يعتمد على التجاوب والانسجام مع حركة العمل الذى يؤديه ، بل إن حركة العمل هى التى كانت تفرض عليه مسار اللحن ، وتهيئ له أنسجام النغم . نغمة قصيرة مع الحركة القصيرة ونغمة طويلة الزمن مع حركة العمل الطويلة ، ومسار اللحن يجرى صعودًا، وهبوطًا ، وقوة وضعفًا ، وفقًا لما تكون عليه حركة العمل ، ومسارها فى الأداء .

وإذا كان أولئك الكادحون قد غنوا وترنموا بأهازيجهم ليفجروا نهر الطرب الخفى فى حنايا نفوسهم ، وليستقوا من فيضه نشوة

وبشاشة وانسجامًا مع الحياة ، فإنهم لاشك هم الذين أهدوا إلى دنيا الفن والغناء أروع الأنغام والألحان ، وأسدوا إليها تلك المقامات والنغمات التى جعلها رجال الموسيقى أصولا وقواعد واستخلصوا منها المقاييس الفنية ، والضوابط التى مازالت للموسيقى ، ومازال أهل الطرب يعيشون عليها فى فنهم ، وهم لا يضيفون إلى أصلها جديدًا ، وإنما يطورنها بحسن التوزيع وبراعة الاستخدام .

وأضرب لذلك مثلا من مصر ، فنغمة « السيكا » التى يعتمد عليها الملحنون عندنا اليوم ، فى تلحين أكثر الأغانى ، حتى أنها لتعتبر النغمة الأصيلة السائدة فى أغانينا وأهازيجنا ، هذه النغمة فى الواقع نغمة مصرية أصيلة ، أهداها الفلاح المصرى إلى أهل الموسيقى والغناء . فنحن إذا تأملنا هذه النغمة فى عزفها وفى مسارها اللحنى ، فإننا نجدها نغمة طويلة فى زمنها الموسيقى تنتهى دائما بقفلة تتكرر دون أى تباين أو اختلاف ، وإذا لاحظنا إلى جانب هذا عملية جر الثور للمحراث ، فإننا نجدها تمثل هذه النغمة تمامًا . فهى عملية تجرى على وتيرة واحدة ، إذ يسير المحراث فى خط طويل بطول مايسميه الفلاحون « بالمرجع » ، ثم تنتهى بقفلة هى « قلع » الفلاح للمحراث من الأرض والعودة به إلى بداية خط جديد ، وهى قفلة تتكرر فى نهاية كل خط لا تختلف أبدًا ، وعلى هذا الوضع أو هذا المسار لحركة العمل كان الفلاح يغنى ويده على المحراث ، منسجمًا مع الحركة وهو يغدو ويروح ، وراء المحراث ،

وكانت هذه النغمة التى نسميها اليوم « بالسيكا » ، ويسميها بعض الباحثين بنغمة الاستعطاف ، من هذه النغمة كان المصريون القدماء ، يغنون « أنشودة الحراث » و .. « أنشودة الحصيد » و « تحية رع » . وقد وجد اليونانيون أيام كانوا فى مصر فى هذه النغمة المصرية الأصيلة إنسجامًا مع مشاعرهم فنقلوها إلى بلادهم ، وعنهم ذاعت فى موسيقى العالم ، ولكن بعض الباحثين الأوربيين يزعمون أن اليونانيين هم الذين نقلوا إلينا هذه النغمة ، والباحثون عندنا يزعمون هذا ، لأنهم يصدقون كل مايقوله الأوربيون .

وموسيقى « الجاز » الذائعة فى العالم اليوم والتى تملأ الدنيا صخبًا وضجيجًا ، وحنانًا وأنينًا ، إنهم يقولون إن هذه الموسيقى هدية أمريكا إلى العالم ، ولكن يجب أن نعرف أنها من قبل ذلك كانت هدية زنوج أفريقيا إلى أمريكا ، وإن الأمريكيين قد أخذوا أنغام هذه الموسيقى من التراث الأفريقى ومن تقاليد الغناء الشعبى للزنوج الذين كانوا يعملون فى ريف الجنوب الأمريكى ، وأصوات جماعات العمال وهم يعملون فى السكك الحديدية ، وفى حقل القطن المتربة ، ثم من صوت الطبول الأفريقية المتعددة الأنغام ، وقد اتخذ الموسيقيون من هذا كله قاعدة لكل الأنواع والأصوات التى أطلقوا عليها اسم موسيقى « الجاز » وأهدوها إلى العالم ، وتجاهلوا القواعد الصارمة للموسيقى الغربية بما فيها من توقيت محدد من بداية ونهاية ومافيها من ترقيم وخطوط مستوية فى الميزان الموسيقى ، ومن هنا

كان الأثر الأفريقى واضحًا ، بل كان هو الطابع المميز لهذه الموسيقى . موسيقى « الجاز » .

وإنى لأعرف من كبار الملحنين من أخذوا أعظم ألحانهم وأروع أغانيهم عن أولئك الكادحين ، فكانوا يخرجون إلى مواقعهم ويتعقبون طريقهم لعلهم أن يجدوا فى أصواتهم وأغانيهم مسارًا للحن يصنعونه لإحدى الأغنيات ، وكان المرحوم الشيخ زكريا أحمد يخرج بنا إلى طرقات القاهرة ، نسير على غير هدى لعله يسمع من بائع جائل ، أو عامل يغنى ، لحنا ينتفع به ، أو يأخذ عنه ثم يسويه فى مسار اللحن الذى يريد أن يصنعه ، وكانت تأخذه روعة الأصوات والأغانى التى يرددها الكادحون ، فى شقاء العمل أو فى هدأة الليل ، وأذكر أننا كنا نجلس معه مرة على شاطئ النيل ، ونسيم الليل يسرى إلينا من الشاطئ الغربى يحمل أصوات أبناء الجنوب ، وهم يغنون « ونا كل ماأقول التوبة يابوى ترمينى المقادير » ، فأخذ الشيخ زكريا يشد شعره ، وينتفض عجبًا وهو يقول : من ذلك الموسيقى البارع الذى صنع لهم هذا اللحن ، ولقنهم حفظه ، وهم يؤدونه فى غير نشاز أو شذوذ ، وما درى أن حركة العمل وألم العمل كانا من أبرع الموسيقيين .

والموسيقار المرحوم محمد القصبجى كان كذلك يصنع ، سمع مرة بائعًا جائلا ينادى على الزيتون الأخضر ، فأخذ من ندائه المنسجم ذلك اللحن المشهور الذى صنعه : « يافايتنى وأنا روحى معاك » .

وشعب مصر شعب طروب بطبعه ، وعلى ضفاف النيل عاش لمصرى يكافح ويصارع الأرض وهو يغنى ، وغناء العمل فى مصر ألوان وفنون ، وثقافة فنية رائعة ، ولعلنا فى جولة مع أغانى الكادحين فى مصر نستطيع أن نقدم شيئًا عن هذه الفنون والألوان ..

الأسماء والمسميات
فى المجتمع المصرى

أمران من أخص خصائص الإنسان ومن أهم شئونه ، ولكن ليس له فيهما رأى أو شأن ، ولايمكن أن يكون له فيهما رأى فى يوم من الأيام .

الأمر الأول مجىء الإنسان إلى هذه الحياة . فلم يكن له رأى فى هذا قَطّ ، ولم يحدث أن رجع إليه أبواه فى هذا الشأن . ولعلها كانت جلسة ممازحة بين الأبوين فصارت جدًّا ، وكان مجيئه إلى هذه الحياة . ذكرًا أو أنثى .. جميلا أو قبيحًا .. ذكيًّا أو بليدًا .. خفيف الدم والروح .. أو ثقيل الظل والنفس .. فتلك مشيئة الله وإرادته .. ولا رأى للإنسان فى هذا ولاخيار .

والأمر الثانى فى الاسم الذى يحمله الإنسان .. ويكون علمًا عليه

فى حياته وعنوانًا له فى المجتمع وبين الناس .. فلم يحدث أن كان للإنسان رأى فى اختيار اسمه ولكنه اختيار الأب والأم أو اختيارهما معًا ، وقد يكون من اختيار الأسرة كلها والأصدقاء والأحباب لهذه الأسرة ، وقد يكون الاسم ثقيلاً أو سخيفًا . أو شيئًا يثير الضحك ، ولكنه قد فرض على صاحبه وما يجب عليه إلا أن يحمل ما اختير له . ولاحيلة له فى هذا الأمر ولاخيار .

ومهمة الاسم أن يكون علماً على الإنسان . وتعريفًا بصورته بين الناس . فإذا ماذكرت له اسم شخص رأيته من قبل . قفزت صورته إلى ذهنك . وتمثل لك بملامحه وبكل ماعرفت من مظاهره ومن هنا يعتبر الاسم عنوانًا لشخصية المسمى بالصورة التى تتمثل فى أذهان الذين يعيش معهم ، ولكنه لايكون حقيقة هذه الشخصية . أو معنى من معانيها . وكثيرا ما يكون الاسم على العكس تماما من حقيقة المسمى ، فالاسم والمسمى بليد أو كريم وهو فى غاية الشح . والجارية السوداء اسمها قمر ، وقد كان يعمل فى دار الكتب شاب اسمه منير . ولكنه فى غاية الدمامة والقبح . فكان كلما رآه الشاعر حافظ إبراهيم عابثه بفكاهته اللاذعة قائلا : لقد ارتكب والدك جريمتين يابنى أولا : لأنه لم يدفع مهرًا محترمًا حتى كان ينجب شابًا منيرًا بحق ، وثانيًا : لأنه زور حقيقتك على لسان الناس فسماك منيرًا . وكان الأليق والأوفق أن يسميك جمعة أو خميس .

واختيار الاسم ظاهرة اجتماعية ، تتحكم فيها عدة عوامل ومؤثرات نتيجة للعادات والتقاليد التى تكون سائدة فى المجتمع ، ومن هذه العوامل مايرجع إلى اعتبارات خاصة . ومشاعر نفسية وكلها من تأثير المجتمع ووحيه وإلهامه ، ولهذا يمثل اختيار الاسم تاريخًا متطورًا فى حياة المجتمع يختلف باختلاف العصور والبيئات ، ومن هنا يمكن للمؤرخ أن يرى فى اختيار الأسماء وشيوعها صورة من الصور التى تفسر روح المجتمع وتوضح اتجاهه والمؤثرات التى تسيطر عليه .

ولكن إذا كان اختيار الاسم ظاهرة اجتماعية بعد أن تكون المجتمع وأصبح الناس أممًا وشعوبًا تسيطر عليها العادات والتقاليد فكيف كان اختيار الأسماء قبل ذلك ؟ ومن الذى اختار أول اسم لأول إنسان فى هذا العالم ؟

فأبونا آدم الذى نسل هذا البشر كله من الذى سماه آدم ؟ . وأمنا العزيزة الغالية حواء من الذى اختار لها هذا الاسم الذى صار يطلق على كل أنثى من بناتها .

فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء كلها .. وقد أسرف بعض المفسرين فقالوا إن الله علمه أسماء جميع الأشياء من الناس والملائكة والأدوات التى يستخدمها الناس فى لوازمهم ومطالبهم ، حتى القصعة والجفنة . واقتصد بعض المفسرين فقالوا إن معنى الآية الكريمة هو أن الله وضع فى آدم القدرة على

وضع الأسماء وتسمية الأشياء بأسمائها .. وهو رأى مقبول لدى العقل .. على أنه لايتجاوز حدود النقل .

ولكن إذا قلنا إن آدم بهذه « القدرة » قد استطاع أن يختار ذلك الاسم الخفيف الرقيق لأمنا « حواء » وأن يختار أسماء أبنائه هابيل وقابيل ومالها من الإخوة والأخوات ، فمن الذى اختار له اسمه الذى عرف به فى كل اللغات ؟

وأقول فى كل اللغات لأن اسم « آدم » تردد فى الكتب المقدسة : التوراة والإنجيل والقرآن .. ومن هنا انتقل إلى لغات جميع الشعوب التى تعيش على دين سماوى .

ومن العجيب أن علماء اللغة العربية يفسرون آدم تفسيرًا عربيًّا فيقولون إنه مأخوذ من أديم الأرض . أى من وجهها ، لأنه من طينتها خلق .. ومنهم من يقول إنه من الأدمة وهى السمرة وقد كان آدم أسمر اللون . ومنهم من يقول إن آدم كان أبيض اللون ، وأنه سمى بذلك لبياضه كما يقول ناقة أدماء .

وكل هذه التفسيرات .. أو التخليطات تؤخذ مأخذ التسلية ، ولايمكن أن تدخل فى معيار الحقيقة .. فإن آدم قد وجد قبل أن توجد اللغة العربية واشتقاقاتها ، ولو صح مايقوله علماء اللغة فى تفسير اسم « آدم » أبو البشر ، فإن معنى هذا أن آدم لم يكن أول اسم فى البشرية .. ولكنه وضع بعد بداية البشرية بآلاف أو ملايين الأجيال .

وفى الحق أن علماء اللغة العربية .. أو غير العربية لايذكرون شيئًا يشفى الغليل عن نشأة الأسماء مع نشأة الإنسان الأول وقبل أن تتكون المجتمعات والاسم .. وكل مايمكن أن يقال فى ذلك إنما هو من قبيل الافتراض المبنى على التمثيل بالواقع .

والذى لاشك فيه أن الأسماء فى نشأتها لم تكن من السعة والترتيب والتنويع الذى نشأ هذه الأيام ، وإنما كانت بسيطة بساطة الحياة التى يحياها الانسان فى بداية أمره ، فوضعت الأسماء للأشياء تعريفًا لأعيانها وتمييزًا للشىء عن غيره ، فسموا الشجرة باسمها مثلا تمييزًا لها عن ذلك الشىء الذى سموه نهرًا ، وهكذا كانوا يسمون كل شخص باسم يعرف به ، ويمتاز به عن سواه .

وفى المجتمعات الأولى كان عدد الأفراد قليلا .. وكانت الأشياء التى تتصل بحياة الإنسان محدودة معدودة .. ولهذا كانت الأسماء الموضوعة للأفراد من الذكور والإناث كافية لعدد الأشخاص . ولكنهم لما ازدادوا عددًا بالتناسل ، زاد عدد الأشخاص على عدد الأسماء الموضوعة ، فلم يعد كل شخص يستقل باسم على حدة .. بل صار الاسم الواحد يطلق على عدد من الأشخاص .. ولهذا اضطروا أن يميزوا الفرد بنسبته إلى أبيه .. فيقولون فلان بن فلان .. ثم زادوا فى التعريف فكانوا ينسبون إلى القبيلة فيقول القرشى والثقفى والهزلى .. كما نسبوا إلى المكان والموطن فقالوا المكى والقدسى والغزى والدسوقى والسكندرى .. إلى آخر ما هناك من

الأسماء المنسوبة .

ويقول علماء النحو إن الأسماء فى أصلها صفات .. فالاسم فى الأصل منقول عن صفة لها دلالتها ومعناها .. وقد بقى هذا المعنى ملحوظًا عند تحول الصفة إلى علم على الشخص بصرف النظر عن انطباقه على المسمى ، وهناك أسماء كثيرة لامعنى لها .. أو يبدو لنا أنها لامعنى لها .. وهى فى الواقع بقايا لغات بائدة غابت معانيها عنا .. أو هى أسماء تناولتها بالتحريف بالنطق حتى أبعدها عن أصلها وبدت وكأنها لامعنى لها . فمثلا نحن نقول فى هذه الأيام « معابد كلابشه » ولانفهم معنى لكلمة « كلابشة » التى تضاف إليها تلك المعابد الأثرية ، ولكننا إذا أمعنا النظر فى البحث وجدنا أنها تتكون من كلمتين .. الأولى « كلى » وهى كلمة نوبية معناها الساقية ، والثانية كلمة « بجة » وهى قبيلة معروفة فى النوبة ، فهى فى الأصل « كلى بجة » أى « ساقية بجة » ولكن التحريف فى النطق صيرها « كلابشة » فبدت غير مفهومة المعنى والمدلول .. وكم للتحريف من عجائب وغرائب .

وعلى آية حال فإن اختيار الأسماء لم يعد وضع اسم على مسمى للعلمية والتمييز .. ولكنه أصبح كما قلنا ظاهرة اجتماعية فى حياة الأمم والشعوب تتحكم فيها عدة عوامل ومؤثرات نتيجة للعادات والتقاليد التى تكون سائدة فى المجتمع .. ومن هذه العوامل كما قدمنا ما يرجع إلى اعتبارات عامة .. ومنها مايرجع إلى اعتبارات

خاصة .. ومشاعر نفسية تنفعل بتأثير المجتمع ووحيه وإلهامه .. ونحن نحمل هذه العوامل والمؤثرات بالقدر الذى يتسع له نطاق المقال .

الأول : العامل الدينى ، ويعتبر هذا العامل .. ومازال أقوى العوامل والمؤثرات فى اختيار الأسماء .. حتى لقد صبغ الأسماء بصبغة دينية .. وجعل منها صورة تمثل معتقدات الأمم الدينية واختلافها فى هذه المعتقدات .. فقبل ظهور الديانات السماوية تأثر اختيار الاسماء بالنحل الوثنية وعبادة الأصنام .. فكان العرب مثلا يسمون عبد اللات ، وعبد يغوث ، وعبد غنم .. فلما جاءت اليهودية والمسيحية ثم الإسلام تأثر اختيار الأسماء بتأثير هذه الديانات ، وصار أهل كل ديانة يسمون أبناءهم بالأسماء الواردة فى التوراة والإنجيل والقرآن على سبيل التدين .. ومازال هذا الطابع الدينى هو الغالب فى اختيار الأسماء بين كافة الأمم والشعوب .. وعندنا فى الإسلام أن خير الأسماء ماحُمِّد وماعُبِّد .. ولهذا نجد أكثر الأسماء شيوعًا بين المسلمين هى أسماء (عبد) مضافًا إلى اسم من أسماء الله الحسنى ، واسم محمد ، وأحمد ، ومحمود ، وهى أسماء النبى صلوات الله عليه .. ثم أسماء أبناء النبى وأحفاده وأزواجه وأصحابه والمشهورين من التابعين .. ومن تأثير العامل الدينى فى اختيار الأسماء اختصاص أهل كل ديانة بأسماء لايتعدونها .. ووجود فوارق فى الأسماء بين أهل هذه الديانات ، فاليهود والمسيحيون مثلا

بسمون بأسماء محمد وعمر وعلى وعثمان .. ولكن المسلمين
ون بأسماء عيسى وموسى وسليمان وداود ، لأن الإسلام يعترف
تهم ونحن نلتزم باسم يحيى كما ورد فى القرآن الكريم .
سيحيون يسمونه يوحنا كما جاء فى الإنجيل .
ومن التأثير الدينى تسمية الأبناء بأسماء القديسين والأولياء
ارفين بالله على سبيل التبرك .. حتى ولو لم يكن للاسم معنى فى
.. فنحن مثلا نسمى الدسوقى ، على اسم ولى الله إبراهيم
سوقى .. والدسوقى فى الأصل نسبة إلى بلدة دسوق .. ونسمى
م مرسى ، تبركا باسم أبو العباس المرسى نزيل الإسكندرية ..
رسى نسبة إلى بلدة مرسية بالأندلس .. وإنما الغاية هى التبرك
س القصد النسبة إلى دسوق أو مرسية ..
ومن العوامل المؤثرة فى اختيار الأسماء البيئة .. ففى بيئة بدوية
براوية تكثر فيها الحروب والغارات مثل الجزيرة العربية نجد
م صخر وحرب وغيث .. وفى البيئة الصناعية يكثر أسماء
ناعة مثل حداد ونجار.. وفى البيئة الزراعية نجد اسم زارع
د الحارث إلى آخر ماهو مشهور وشائع فى مختلف البيئات .
والمعتقدات الشعبية لها أيضًا دخل كبير فى اختيار الأسماء ..
يدة الحسد الشائعة بين العامة تحملهم على اختيار أسماء لأبنائهم
ع عنهم الحسد المزعوم .. وتكون عادة أسماء مضحكة مثل
خيشة .. أو أبو عدس .. أو الأعمش .. أو شلضم .. وعقيدة

التفاؤل تجعلهم يختارون الأسماء التى تحمل أمنياتهم وتمنياتهم الحياة .. فالأسرة الفقيرة تسمى عبد الرازق مثلا .. والأسرة ا ترغب فى زيادة النسل تسمى أول ولد من أبنائها عادة با عبد الفتاح .

وقد يكون اختيار الاسم خاضعًا لعامل التقليد من الضعي للقوى .. ومن التابع للمتبوع .. والحاكم للمحكوم .. ومن هنا ن طوائف الشعب تسمى أبناءها بأسماء الزعماء والحاكمين المرموقين الأمة .. وقد يشمل هذا التقليد الأمة كلها إذا كانت خاضعة لـ أمة أخرى وسيطرتها فنحن مثلا فى مصر حين خضعنا لـ الأتراك ، نقلنا الأسماء التركية إلى أبنائنا وشاعت بيننا أسماء عز ومدحت وحشمت وعفت إلى آخر تلك التاءات المفتوحة .. شاعت أسماء فهمى وزكى وحمدى وفؤاد إلى آخر تلك الأسماء ا مازالت زائعة ومسيطرة فى مصر .

والاعتزاز بالنسب له أيضًا تأثير فى اختيار الاسم .. فقد تؤ الأسرة أن يحمل الابن اسم أبيه أو اسم جده أو أى شخص مرمو من أسرته .. أو أحد الأعزاء منها .. وهذا يؤدى إلى تشابه الأس فى الأسرة الواحدة مما يدعو إلى الاختلاط وضرورة تمييز أفر الأسرة بإضافات وصفات لاحقه .

بقى أن نشير إلى وضع لابد من الإشارة إليه فى هذا المقام وهو مايسمونه فى التعبير الحديث بأسماء الدلع .. وذلك بتحري

سم أو اختزاله إلى صيغة خفيفة فى النطق تتفق مع الرنين وسيقى .. وأحب أن أقول إن العرب وهم أهل بداوة هم أول من ندعو أسماء الدلع .. وقد عقد النحاة لهذا بابًا أسموه باب ترخيم . والواقع أن صيغ « التدليع » عند العرب أوسع وأشمل ذكره النحويون فى قواعدهم .. وأذكر على سبيل المثال اسم ة ، وهى الجارية الصغيرة .. فقد حرفوه بالتدليع إلى أميّة .. ثم لوا ميّة .. ثم مْى .. وهكذا إلى كثير من الأسماء التى يطول صرها ، وشاعت شيوعًا كبيرًا فى هذه الأيام ..

فانظر كيف كان اختيار اسمك خاضعًا لأى اعتبار

هز القحوف
وقصيدة (أبو شادوف)

اشتهر كتاب « هز القحوف » .. بين أبناء الجيل الماضى بأن كتاب نكت وفكاهة وأدب ، واشتهر بصفة خاصة بين البيئات الشعبية لأنه مكتوب بلغتها العامية ، ولأنه يتضمن طرائف وحكايات من الأدب المكشوف ، وهى ما يستطيبه العامة فى سمرهم وفى مجالسهم الخاصة ، وكان هذا الكتاب من أوائل الكتب التى طبعت فى مطبعة بولاق مع « ألف ليلة وليلة » .. وغيرهما من كتب القصص والنوادر والفكاهة ، ولقد صدرت طبعته الأولى من مطبعة بولاق عام ١٢٧٤ للهجرة ، أى منذ قرن وثلث قرن ، ثم صدرت طبعته الثانية فى بولاق عام ١٢٨٢ للهجرة ، وبعد هذا طبع على مطبعة حجر بالاسكندرية عام ١٢٨٩ ، ثم طبع فى طبعات شعبية

خيصة من مطابع حى الأزهر ومكتبات الصنادقية وفى العهد الأخير
ام الأديب محمد البقلى بإخراج الكتاب فى طبعة مهذبة حذف منها
نوادر المكشوفة ، والفكاهات المبتذلة ، وكلمات الفحش وأسماء
عورات . وعلى أية حال فإن الكتاب بما تضمنه من حكايات
لجون وأسماء العورات قد يبدو شيئاً يخدش الأخلاق ، ويسىء إلى
لحياء والذوق العام ، على أنه أسلوب كان مألوفاً فى ذلك العصر
نهم كانوا يؤلفون للخاصة ، إذ لم تكن المطبعة قد عرفت فى مصر ،
لم تكن وسائل النشر العامة كما هى اليوم ، وعندما قامت دار
لكتب المصرية بطبع كتاب « نهاية الأرب » للنويرى حذفت
ا تضمنه الجزء الثانى منه من مجون وأدب مكشوف وأبقته فى طبعة
خاصة لا تباع إلا بأذن خاص .

أما المؤلف فهو « الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن
خضر الشربينى عاش حياته كلها فى القرن الحادى عشر للهجرة ،
هو ما يوافق القرن السابع عشر الميلادى وكانت مصر تحت الحكم
لعثمانى ، والولاة عليها من الشركس والأتراك أو الأروام كما كان
سميهم الشيخ يوسف ، وقد درس الشيخ يوسف فى الأزهر ، وتفقه
ى علوم الدين ، وكانت عنده مواهب أدبية فنبغ فى الشعر وفنونه ،
يظهر أنه كان كثير التنقل فى البلاد والاختلاط بالناس فى القرى
المدن ومعاشرتهم . فاجتمع له من هذا حصيلة كبيرة من المأثورات
لشعبية ، والعلم بأحوال الناس فى حياتهم الخاصة والعامة ، ويؤخذ

مما ذكره الشيخ يوسف عن والده أنه كان على شيء من العلم بفنو
الزجل والمواليا ، وهو يذكر من شيوخه فى الأزهر شهاب الدي
أحمد بن سلامة القليوبى ، وأحمد بن على السندوبى ، ويقول إ
شيخه السندوبى هذا هو الذى ألجأه إلى نظم قصيد
(أبو شادوف) وكتابة شرح لها ، ونسخ هذا الشرح ونقله . وأثن
عليه ثناء كبيرا فيصفه بأنه وحيد الدهر ، وعالم الإسلام ، وروض
العلوم والآداب ، ولعل هذا الشيخ كان معيناً استقى منه الشربين
واغترف .

ولم يكن الشربينى كما يبدو من أسلوبه المكشوف فى هز القحوف
رجلا منحلا يبتذل نفسه فى الخلاعة والمجون ، وهى تهمة يمكن أ
توجه أيضًا إلى شيخه السندوبى الذى ألجأه إلى تأليف هذا الكتاب
فقد كان الرجل حريصًا على تعاليم الدين ، وهو فى نفس الكتاب
يذكر العلماء والشيوخ العارفين بالله بالتبجيل والتكريم ، وقد أدى
فريضة الحج ، ويقول : إنه وهو متوجه إلى الحج من الصعيد على
بندر القصير سنة خمس وسبعين وألف ، سمع طائرًا فى غيط قمح
يقول : طاب دقيق البر سبحان القديم الأزلى ، وقد سمعه كل من
فى السفينة .

وللشيخ الشربينى غير « هز القحوف » كتاب « اللآلىء والدرر
وهو قصيدة نمطية تجرى فى نظيمها أن تكون جميع حروفها خالية من
النقط ، ثم كتب شرحًا لها بالحروف المهملة أيضًا سماه « طرح المدر

وحل الدرر » ، وقد فرغ منه فى عام ثمانية وتسعين وألفا للهجرة ، أى أنه كتبه فى أواخر حياته ، وهذا يدل على أنه كان فى حياته الرجل وفى شخصيته جانب جاد فى الكتابة إلى ذلك الجانب الهزلى الذى تمثل فى كتابه هز القحوف .

وكتاب هز القحوف فى مضمونه صورة شاملة كاملة للحياة الاجتماعية والمعيشية للفلاحين بالقرى فى لباسهم وعاداتهم وأفراحهم وأعراسهم ، وما يهمهم وفيما يجرى بينهم من معاملات وصلات ، ثم ما كان يقع عليهم من تسديد أموال الأراضى ونزلة الكشاف والمشد والملتزم والعونة ، والصلة بينهم وبين أهل المدن وهى ما يسميه الشيخ الشربينى بصلة أهل الريافة بأهل اللطافة ، وبعد هذا ففى الكتاب مادة وافرة من المأثورات الشعبية ، والأشعار والأزجال والمواليا ، والأمثال والحكم الشعبية ، فهى فى الواقع صورة لا يمكن أن تجدها فى أى كتاب من كتب التاريخ عن حياة الشعب المصرى فى تلك الحقبة المظلمة من التاريخ ، ومن هنا يعتبر الكتاب وثيقة تاريخية تمد المؤرخ بكثير من الحقائق والتفاصيل الواقعية عن حياة القرية المصرية ، وقد كتبها كاتبها فى صدق وأمانة ، وإن آثر كتابتها بأسلوب فكاهى ساخر فى النقد الاجتماعى ، موغل فى الهزل والسخرية . ثم هى وثيقة يجد فيها المهتمون بدراسة المأثورات الشعبية والأدب الشعبى زادًا دسما ومادة وافرة .

وكتاب « هز القحوف » يشتمل على قصيدة وشرحها ، والقصيدة من نظم الشيخ الشربينى والشرح من تأليفه ، وقد نظم القصيدة باللغة العامية الريفية واختار فى نظمها الألفاظ التى يستعملها الفلاحون فى الريف ، ونسبها إلى رجل ريفى اختار له اسم « أبو شادوف » ، وهى آلة بدائية كان يعتمد عليها الفلاح فى رفع المياه لرى الزرع من أيام قدماء المصريين ، ثم شرح القصيدة بأسلوب عامى فكاهى ، وجرى فى الشرح على الطريقة التى كانت مألوفة عند علماء الأزهر فى شرح الكلمات والاستفاضة فى شرحها من جميع النواحى اللغوية والاصطلاحية ، وبعد ذلك يذكر المعنى العام للبيت من النظم ، ويعقب عليه بما يناسبه من النوادر والفكاهات والحكايات والطرائف .. والكتاب يقع فى جزأين الأول تحدث فيه المؤلف عن أحوال الفلاحين ، والوقائع التى وقعت لبعضهم باتفاق ، فى القاهرة ومصر وثغر بولاق ، وذكَر منهم الجهال ، وعلمهم الذى يشبه ماء النخال ، وفقراءهم الأجلاف ، وأحوال الأوباش منهم والأطراف ، وذكَر نساءهم عند الهراش وملا عينهن فى الفراش ، وأخلاقهم الرذيلة ، وذوائبهم الهبيلة ، وقمصانهم المشرمطة وشعورهم الملخبطة ، ونساءهم المزعجات ، وما لهم من الدواهى والبليات . وهذا الجزء هو الذى سماه المؤلف بهز القحوف . أما الجزء الثانى فهو الخاص بشرح قصيدة « أبو شادوف »

ثم يتحدث المؤلف عن السبب فى كتابة كتابه باللغة العامية ، وحشوه بالنكت الهزلية ، وحكايات الخلاعة والمجون ، وشيء يحاكى كلام ابن سودون ، فيقول « إن السامع يلتذ بكلام فيه الضحك والبلاغة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة ، لأن النفوس الآن ، أى فى زمانه ، متشوقة إلى شيء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم ، وزماننا هذا لا يعيش فيه إلا من عنده طرف من التمسخر والخلاعة والرقاعة ، ولهذا قال الشاعر :

مات من عاش بالفصاحة جوعًا
وحظى من يقود أو يتمسخر

وقد تساق الأرزاق ، لمن لا يدرك – الحظ فى الأوراق ، ويحرم صاحب البلاغة ، ولا يجد من القوت بلاغة » .

وهنا يثير الشيخ الشربينى قضية كانت مثار الشكوى من قديم الزمن ، ومازالت مثار الشكوى فى هذا الزمن ، وهى قضية نظمها الأديب البوصيرى يقول فيها :

رب الفصاحة عظيم الذوق يقف أبلم
والأبلم التيس مصدر ومتعظم
يارب إن كان حرمانى كما تعلم
امنن علىّ أكون تيس ابن كبش أبلم

ونظمها ابن الرواندى شعرًا فقال :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة
وصير العالم النحرير زنديقا

ولكن ما الموقف إزاء هذا ؟

يقول الشربينى : يجب أن يكون الشخص مع زمانه ، بحسب حاله ، ويدارى وقته بما يناسب أحواله ، ويكون حذرًا من دهر وصولته ، ويرقص للفرد فى دولته ، ويعاشر الناس على قد أحوالهم ، ويدور معهم وينسج على منوالهم ، ويتدرج فى مدارج خلاعاتهم ويظهر فى مظاهر براعاتهم ، كما قال بعضهم :

ودارهم مادامت فى دارهم
وحيهم مادمت فى حيهم
وأحسن العشرة مع بعضهم
يعينك البعض على كلهم

وهذه فى الحقيقة دعوة إلى السلبية كما نقول فى هذه الأيام وكأنه أراد أن يعتذر عن نفسه حين اندرج مع أهل زمانه فى مدارج خلاعاتهم ، وهذا هو ما يؤخذ على الشربينى فى كتابه ، إذ انتقد على الفلاحين وتناولهم بذلك النقد الحاد ، ولم يقترح عليهم حلا إيجابيًا للتخلص من شقاء الحياة التى يحيونها ، ومن هنا جاء كتابه صور نقدية وصفية للداء ، ونسى فيها العلاج لهذا الداء .

ن عهدين :

وفى الحق أن الشيخ الشربينى قدم فى « هز القحوف » صورة املة التفاصيل والظلال عن حياة الفلاح فى القرية خلال القرن لحادى عشر للهجرة وهى صورة كما قلنا من قبل ، لا يمكن أن بدها الباحث بهذه التفاصيل عن الحياة الشعبية فى أى كتاب من تب التاريخ ، ولعل أبرز معالم هذه الصورة هو ما كتبه الشيخ شربينى عن الصلة بين الفلاحين والحكام فى ذلك العهد ، وما كان فرض عليهم من المظالم والمغارم ، حتى أحالت حياتهم إلى شقاء ائم ، وبؤس قائم ، ولعل الفلاح فى القرية لم يعان من عسف لحكام ، وشظف العيش ، وقسوة الحياة ما عانى فى ذلك العهد ، هو عهد الاحتلال العثمانى لمصر .

وقبل أن يفتح السلطان سليم مصر فى عام عشرين وتسعمائة لهجرة ، كان يحتلها المماليك حكما استبداديًا ، وكانت لهم مظالم مغارم يفرضونها على الشعب ،..ولكنها بالنسبة للفلاحين كانت خف وطأة ، وأقل عسفًا ، لأن المماليك كانوا يحصلون على لأموال الكثيرة من مرور التجارة الخارجية بين الشرق والغرب صر ، فلما تحول طريق هذه التجارة عن مصر إلى رأس الرجاء لصالح ، قلت موارد هذا المال ، وتضاءلت إلى حد العدم ، ومن صريف المقادير أن حدث هذا مع بدء الاحتلال العثمانى لمصر وعلى

عهد السلطان الغورى آخر سلطان مستقل كان يحكم مصر ، وم
هُنا كثرت المظالم والمغارم فى تحصيل الأموال ، وفرض الفروض عل
الشعب فى القاهرة وفى الأقاليم ، وقد أشار الشيخ الشربينى إلى هذ
الحال وهو يتحدث عن هموم الفلاح من حساب المال والخرا
والمغارم التى تفرض عليه ، ويقابل بين حياة الفلاح فى ذلك العه
وفى العهد المتقدم فيقول :

وحاصل الأمر أنه ليس فى الزرع بركة من ابتدائه ، لقل
التقاوى وضعف الفلاح عن إصلاح الأرض ، لأن الأرض لا يقو
بزرعها إلا الفلاح القوى المتيسر خصوصًا ما زاد عليها الآن مر
المظالم وزيادة الخراج والفوائد المكتتبة على الفلاحين والمغارم
فالزرع وإن ورد أنه فيه تسعة أعشار البركة لا يفى بهذا المقدار مر
كثرة الظلم ، أما فى الزمن المتقدم فلم يكن على الفلاح عوائ
ولا كلف ولا مغارم ولا شىء مما هو موجود الآن ، كان الشخص
يزرع الأرض ، وكان خراجها شيئًا يسيرًا ، وكانت البرك
حاصلة ، والأرض كلها عامرة بالزرع ، والناس فى غاية الخير
وسعة الرزق والكسب .

الكشاف والملتزم :

أما الحكام الذين كانوا يباشرون الأحكام والتسلط على شئو
الفلاحين فى القرى ، فقد تحدث عنهم الشيخ الشربينى حديثً

صلا ، وإن لم يكن مرتبًا ، وأول هؤلاء « الكشاف » ، وهو خص كان يتولى شئون إقليم بأكمله ، كما كان شأن مدير المديرية محافظ المحافظة فى هذه الأيام ، وقد وصف بالكشاف لأنه كما ل الشيخ الشربينى كان « يكشف على الإقليم المتولى عليه ، زيل ما فيه من المفاسد والظلم ، ويسد الثغور ويمكن الجسور ، زيل اللصوص وكان هذا عادة كل كاشف تولى فى قديم الزمان ، ير سيرة حسنة ، ويمر على البلاد ، وإذا أقبل على قرية يقرع طبل ، فيخاف منه أهل البدع ، وأرباب المفاسد ، ويرتحلون عنها ربين خوفاً منه ، وربما وقعوا فى يده فيعاقبهم بما يستحقونه من ل أو حبس أو ضرب أو أخذ دارهم ، ثم ينزل على القرية إذا ن له عليها عادة بالنزول ، وكان نزول « الكشاف » على القرية نه يوم الهول والرجفة الكبرى ، إذ يأتى إليه مشايخها ويقفون بين يه فى أشد ما يكونون من الرعب والخوف .. ويستخبرهم عن حوالهم ويسألهم عن أرباب المفاسد وأصحاب البدع ، ويلزمهم لقبض عليهم إذا لم يكونوا فى القرية ثم بعد ذلك يسرعون فى أكل والشرب والتغاريم على ما جرت به العادة ، وإذا وقع فى قرية فتنة فيما بينهم ، أو قتل ، أو خروج عن طاعة أستاذهم ، أو ثم مقام القرية - وهو العمدة فى أيامنا - هجم عليهم الكشاف مر الوزير ، وأخرب القرية وقتل منهم من يستحق القتل ، وأزال عصاة والجبابرة .

ويعلق الشيخ الشربينى على مهمة « الكشاف » فيقول : وء
كل حال فوجوده على الإقليم رحمة ، وسيره كشف غمة ، ما
يحصل منه ومن عسكره وأتباعه الضرر على الناس من نهب متاع
وأذيتهم وتكلف فى المأكل والمشرب فوق طاقتهم ، وإلا فيكون ه
من باب الظلم وهو حرام

والرجل الثانى بعد « الكشاف » هو « الملتزم » ، وهو رج
كان يلتزم بزراعة قرية من القرى ، وقد يزرع منها جانبا ويعط
الجانب الآخر للفلاحين بخراج معلوم والأرض التى كان يلت
بزراعتها تسمى الاوسية ، أو الوسية ، بدون همزة وهى كلمة ظل
شائعة بين الفلاحين إلى آخر عهد الاقطاع منذ سنوات ، وكا
الملتزم يرسل إلى الاوسية ثيرانًا وأخشاباً ومحاريث وما يحتاج إليه
الزراعة ، ويجعل على ذلك وكيلا يتولى الصرف على هذا بحساء
مضبوط ، أما إذا تطلب الأمر حفر السواقى والقنوات ورفع الط
من الآبار وحصاد الزرع فقد كان العمل فى هذا يفرض عم
الفلاحين « عونة » أى بلا أجر ودون أى مقابل ، فكان « المشد
ينادى فى القرية العونة يافلاحين فيخرجون جميعهم عند الصبا
للعمل ولكل ما يأمرهم به ، ويقضون فى ذلك أيامًا حتى يفرغ الحق
والحصاد ، وإذا تكاسل واحد عن الخروج أخذه « المشد » وعاق
وغرمه دراهم وبعض البلاد تكون « العونة » فيها على رجا
معروفين بالبيوت ، بأن يخرج من بيت واحد ومن بيت اثنا

ثلاثة حسب ما تقرر عليهم ولا ينفك من عليه العونة منها ، وإن
ت جعلوها على ولده . فهى داهية كبرى ومصيبة عظمى على
لاحين ... والشيخ الشربينى يحمد الله لأنه أراح قريتهم من هذه
العونة » ، لأنها قراريط معلومة على الفلاحين لا يعرف الملتزم
خراجًا يأخذه منهم فى كل سنة بالتمام والكمال ، وإن كان
يهم بعض عوائد ومظالم فليس كبلاد الأوسية ، لأنهم دائمًا فى تعب
در ، وغرامة وسخرة ، وهم زائد .

أما الهم الأكبر للفلاح فى القرية ، فهو المختص بتحصيل مال
يوان ، وهو يشبه الصراف الذى يقوم بتحصيل الأموال الأميرية
أيامنا ، ويسميه الشيخ الشربينى « بالنصرانى » ويقول إن الحكام
وا يولون النصارى قبض الأموال لحذقهم وصحة عقولهم فى
حساب ، وبهذا كان لهم أمر الأموال ، كما كان لليهود علم الطب
تى تصرف الفريقان فى الأموال والأرواح ، ثم يقول الشربينى فإذا
جاء ذلك « النصرانى » إلى القرية لتحصيل مال الديوان ،
ا هو مفروض على الفلاحين كثر الخوف والحبس والضرب لمن
يقدر على تغليق المال ، فمن الفلاحين من يقترض الدراهم
يادة ، أو يأخذ على زرعه إلى أوان طلوعه بناقص عن بيعه فى
لك الزمن ، أو يبيع بهيمته التى تحلب على عياله ، أو يأخذ مصاغ
وجته يرهنه ، أو يتصرف فيه بالبيع ولو قهرًا عليها ويدفع الثمن
تولى قبض المال ، وإذا لم يجد شيئا ولا يرى من يعطيه أخذ الملتزم

أو المشد ولده رهينة حتى يغلق المال ، أو يأخذه أخاه إن لم يكن ولد ، أو يوضع فى الحبس للضرب والعقوبة ، ومنهم من يهرب الليل فلا يعود إلى بلده ، ويترك أهله ووطنه من هم المال وض المعيشة .

على أن الهم لم يكن هم المال وحده ، بل هم ما كان يس « بالوجبة » ، وهى ما يجب على الفلاحين أو يقدموه إلى الم والمشد ومحصل المال ، ويقول الشيخ الشربينى إن « الوجبة » كا توزع على الفلاحين بحسب ما يخصهم فى الأرض من القرار أو الافدانة ونحو ذلك .. فمنهم من يكون عليه يوم فى الشهر ومنهم من يفعلها فى كل جمعة مرة ، ومنهم من يجعلها فى ثلاثة أيا وهكذا بحسب كثرة الفلاحين وقلتهم وحسب زيادة الأر ونقصها ، فلابد منها فى كل يوم من الإقامة ، فيقوم الرجل بك « المشد ، والنصرانى » إن كان حاضرًا ، وجميع من يكون من طائ « الملتزم » ويلتزم بجميع أكلهم وشربهم وما يحتاجون إليه من عل دوابهم ، وما يتمنونه عليه من المأكل من اللحم .. والدجاج .. و كان فقيرًا ألزموه بذلك قهرًا عليه ، وإلا حبسه « المشد » وضر ضربًا مبرحًا وربما هرب الرجل من قلة شىء يصنعه فير « المشد » إلى أولاده وزوجته يهددهم ويطلب منهم ذلك ، فر رهنت المرأة شيئًا من مصاغها أو ملبوسها على دراهم وأخذت الدجاج أو اللحم وأطعمهم وحرمت أولادها من الأكل منه خو

على نفسها من أنه لا يكفيهم ، وقد يربى الفلاح الدجاج فلا يأكل منه شيئًا ، ويحرم نفسه وعياله من خوفه من الضرب والحبس ، ومثل الدجاج السمن والدقيق ، فيبقيه لأجل هذه البلية - يعنى الوجبة - ويطبخ بالسيرج ، ويأكل الخبز الشعير ويصنع لهم القمح الأربع ويأكل الجبن القريش المالح ، ويتكلف شراء الجبن الطرى الحلو ويرسله فى الوجبة ، وكل ذلك خوفًا على نفسه من كل هذه الأمور .

ثم يقول الشربينى : وقد سميت « وجبة » لكونها صارت على الفلاحين حكم الأمر الواجب عليهم « للملتزمين » فلابد من فعلها « للمشد » بالقرية أو محصل مال الديوان أو « الملتزم » إذا حضر ، وإذا أسقطها بعض « الملتزمين » جعل فى مقابلها شيئًا معلومًا من الدراهم وإضافته إلى المال ويلزمه بدفعه إلى المشد بالقرية ، ويؤخذ منهم كل عام فهى من أنواع الظلم والأكل منها حرام .

ويورد الشربينى سؤالا وجوابًا فى الحكم بتحريم الأكل من هذه الوجبة فيقول : إن الأمير وغيره إذا التزم بقرية وجد فى دفاتره من التزم بها قبله الوجبة والغرامة وغير ذلك مما هو من أنواع الظلم ،فيجعل ذلك على أهلها حكم الحوادث السابقة كما جرت به العادة ، فهل يكون الإثم عليه أو على من أحدث هذا قبله أو عليهما معًا ، ثم يقول فى الجواب ورد فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » ، أى من

أتى بشيء لم يكن موجودًا فى زمن النبى وهو المسمى بالبدعة فهو رد ،أى مردود ، ومعناه لا يقتدى به ، وفيه بيان على أنه لا فرق بين أن يكون أحدث بنفسه أو سبقه به غيره ، فالإثم على كل من فعله أو أمر بفعله ، إذ كل فعل لم يكن على أمر الشارع ، ففاعله آثم ، ثم لقوله ﷺ « من أحدث حدثاً أو آوى محدثا ، فعليه لعنة الله» ، وفيما تناوله الحديث رد على ذوى العقول الفاسدة والحكم مع الجهل والجور مما لا يوافق الشرع وبهذا اتضح الجواب وبان الصواب .

موقع العظمة

فى ذكرى مولد الرسول الكريم محمد بن عبد الله ، استفاضت العظات والدعوات والتهنئات .. وتجاوبت الأصوات تتحدث عن عظمة الرسول فى يوم ذكراه .. ولكن هل ترانا وقعنا على العبرة الجليلة التى نحن أحوج ما نكون إليها اليوم من عظمة الرسول العظيم ونحن نستقبل ذكرى مولده الشريف ؟ .

إن الرسول صلوات الله عليه كان عظيمًا .. ولكن عظمته لم تكن فى رسالته .. فإن الرسالة من عند الله وقد اصطفاه لتبليغها . وإنما العظمة كل العظمة فى تبليغ هذه الرسالة وتنفيذها وتطبيقها وأدائها كما أمر الله .. ولقد استطاع محمد صلوات الله عليه أن ينهض بأعباء هذه الرسالة .. وأن يقف بها أمام العالم .. ويواجه قوى الطغيان

والجبروت .. وهو لا يملك لذلك إلا سمو الخلق .. وكمال النفس .. وإيمانًا راسخًا يملأ القلب .. فما لان أمام تهديد أو وعيد .. ولا فتنته الدنيا بزخارفها ، عن دعوة الحق .. ولا أبطره جاه وهو ينشد للإنسانية العزة والرشد والهداية .. حتى خرج من الدنيا وترك ابنته الوحيدة تعيش على قرص من الشعير .. ودرعه مرهونة على ثلاثين درهمًا عند يهودى .. وكان فى كل مواقفه إنسانًا كشرط الرسالة الإلهية .. لا تفقد الإنسانية فيه حقيقة من حقائقها .. ولا يصيب الجبروت فيه باطلا من أباطيله .

إن هذا هو موقع العظمة فى حياة محمد وسيرته .. عظمة الكمال الإنسانى التى أرادها الله شرعة للناس وقدوة .. وعلى موقع هذه العظمة والقدوة فيها .. تربى أتباع محمد الأولون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .. وحسبك فى الدلالة على هذه التربية العظيمة بالعمل والاقتداء ما روى عن أبى بكر رضى الله عنه حين حضرته الوفاة .. إذْ نظر إلى ابنته عائشة وقال : «اسمعى يا عائشة .. لقد ولينا أمر المسلمين وملكنا أمرهم .. فأكلنا من جريش طعامهم فوق أجسامهم .. وليس عندى إلا جرد هذه القطيفة .. وإلا جمل السقاية .. وهذا العبد يقوم على خدمتى .. فإذا مت فليرد هذا كله إلى بيت المال» .

ونحن فى عصر يمكن أن نسميه عصر المذاهب والدعوات .. فما أكثر المذاهب التى تدعو إلى إصلاح الحياة وإلى خير الإنسانية ..

ما أكثر الدعوات التى تتناول بالعمل والكفاح فى سبيل الحياة .. لكن هذه المذاهب والدعوات تتهاوى فى محنة التطبيق .. وتسقط تراكمة حتى على أيدى أصحابها فى مجال التجربة والتنفيذ .. وهذه هى محنة العصر .. ومحنة المذاهب والمبادئ فى هذا العصر .

ونحن اليوم فى ذكرى محمد صلوات الله عليه أحوج ما نكون لى التآسى والاقتداء .. والأخذ بمعانى هذه العظمة .. عظمة التبليغ والتطبيق والعمل والجهاد فى سبيل الغاية ، وما أحوجنا إلى مراجعة لدروس والمواقف العظيمة التى تركها لنا النبى الكريم فى تبليغ لرسالة والنهوض بأعباء هذه الرسالة أمام العالم .

يقول بعض الذين يتاجرون بالكلام ماذا نصنع أمام إسرائيل وما تغدقه أمريكا على إسرائيل من الفانتوم والصواريخ .. ونحن نقول لهؤلاء : وماذا كان يملك محمد العظيم من هذه القوة المادية أمام قيصر الروم وكسرى الفرس .. بل ماذا كان يملك أمام طغيان قريش وهو يمشى بدعوته فى مكة وأسواقها .. وأمام القبائل التى عاندت وكابرت .. واليهود ومؤامراتهم اللئيمة فى المدينة .. ولكنها عظمة محمد فى تبليغ الرسالة وتطبيقها بقوة الإيمان .. وإنكار الذات وإيثار الحق وعرفان الواجب .

إن هذه العظمة التى تمثلت فى الكمال الإنسانى لرسول الإسلام محمد هى التى حققت النصر والقوة للإسلام .. وعلى هدى هذه لعظمة سار أتباعه الأولون يحققون المعجزات فى ميدان النصر ، ففى

عشرين عامًا استطاعوا أن يحطموا أضخم قوتين وأكبر إمبراطوريتين تتسلطان على العالم .. أعنى بهما إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم .. وأن يقيموا لهم دولة ممتدة تشمل بلاد الشام والعراق وفارس ومصر وبرقة وطرابلس والمغرب حتى شاطئ الأطلسى .. وفى سرعة البرق أصبحت هذه الدولة مركز القوة فى العالم .. ومحور الثقافة التى تشع على جميع آفاق الأرض .. ومن العجيب المدهش أن الجيوش العربية التى خرجت إلى هذه الفتوحات العظيمة ولا تملك من ضخامة العتاد .. ولا كانت فى ضخامة العدد الذى يكفل لها الغلبة والنصر .. بل كانوا من قلة العدد فى كل موقعة .. وفى كل معركة ما يثير الإشفاق والفزع فكان المائة منهم يلاقون الألف .. والألف يلاقون عشرات الألوف .. على أنهم لم يكونوا مع هذا إزاء جند هيج .. وإنما كانوا يواجهون جنودًا مدربين لهم فى الحرب بطولات عريقة .. جنود دولتين عظيمتين امتدت حروبهما مع الزمن قرابة ألف عالم .

من موقع هذه العظمة يجب أن نأخذ قدرتنا وأن نبنى قوتنا .. وأن نربط أنفسنا بالغاية التى ننشدها .. والحياة التى نريدها .

لقد بدأ محمد يجهر بدعوته والعالم كله ينكر عليه هذه الدعوة ويجحدها .. فما تعاظمه هذا الإنكار والجحود ولكنه أصر على تبليغ دعوته ، وأن يواجه بها الناس فى صبر وشجاعة وإيمان حتى اكتمل

ا النصر وملأت فجاج الأرض.

فإذا كنا أتباع محمد حقًا فيجب أن نكون لنا به قدوة الأمل العمل والإيمان والجهاد.. حتى يتحقق لنا النصر.

على طريق الحياة

عندما تتحول حياتنا إلى ذكريات .. يكون كل شيء فيها خيراً وطيبًا وحلواً وجميلا .

حتى الإساءات التى ارتكبناها .. والحماقات التى صنعناها . وما كان من معابث الشباب وهفواته نسترجعها فى حنين محبب . ونحاول أن نعتذر عنها أمام أنفسنا فى رفق ولين .

والأشخاص الذين كنا ننظر إليهم نظرة جفاء .. والرجال الذين نتعمدهم بالإساءة والعبث .. ونعتقد أنهم أهل للإساءة والعبث . نعود فى فيض الذكريات فنذكرهم فى حب ومودة .. وننظر إليهم نظرة عطف ووفاء .. لأن كل ما فى ماضينا حلو وجميل .

ولقد عشت ساعة فى ذكريات من الماضى آثارها فى نفسى

تاذنا مصطفى أمين .. إذ أشار فى «فكرة» إلى قصة الكاتب
سحفى أحمد فؤاد صاحب الصاعقة يوم أن نعاه الناعى إلى جريدة
هرام فى ساعة متأخرة من الليل .. فنشر أنطون الجميل النعى ..
ردفه بكلمة تأبين ورثاء للكاتب الراحل .. وفى اليوم التالى فوجئ
لون الجميل وجلساؤه فى الأهرام بالكاتب الراحل يقتحم عليهم
سهم .. ويثبت لهم أنه حى لم يرحل عن دنيا الناس .. وأن الذى
ب وكتب ينعيه إلى الأهرام عدو أثيم.

تلك ذكرى من ذكريات شبابى .. فأنا الذى نعيت أحمد فؤاد
ساعقة .. كما كنا نسميه إلى الأهرام .. وما كنت عدوًّا لهذا
جل .. وإن كنت أبغض أسلوبه فى الصحافة وسلوكه فى الحياة.

كان أحمد فؤاد كاتبًا يكتب بأسلوب عربى ينحو فيه منحى
يلحى الكبير .. فى التقريع والتأنيب .. ويتجاوزه بالفحش
تهجم على الأعراض .. وبهذا الأسلوب كان يصدر مجلة باسم
صاعقة» ، وكانت مجلته صورة صارخة لما نسميه بالصحافة
سفراء .. فليس فيها إلا المديح يكال لمن يدفع ويقدر ما يدفع ..
لا الفحش والتهجم على الأعراض لمن لا يدفع .. وكان المجتمع
سرى يومذاك يمثل هذا اللون من الصحافة التى تعتبر سخافة فى
رف الصحفى السليم .. وبهذا الأسلوب كان أحمد فؤاد معروفًا
ـ أصحاب المقامات .. وأبناء الذوات .. وكان الناس لا يعرفونه
يذكرونه إلا باسم فؤاد الصاعقة ..

أدركت أحمد فؤاد فى أواخر حياته .. وكانت له مطبعة فى باد
الخلق يصدر بها الصاعقة .

وكان يستعين على تحريرها بعدد من الشبان الأدباء لقاء قروش
معدودة .. ووجبة دسمة من الكباب كل أسبوع .. وكان من عادته أ
يجلس على باب قهوة العلم ، وهى قهوة أظنها مازالت قائمة فى باد
الخلق .. ولقد التقيت به مرات فى هذا المكان .

ومع أن الرجل كان يكتب بأسلوب عربى فيه نفحات م
الأصالة البيانية .. فإننى لم أجد عنده علمًا ولا أصالة أدبية .. وكان
كل بضاعته أنه حفظ كتاب «العقد الفريد» فى شبابه كما قال لى
وكانت له قدرة على استخدام ما تضمنه هذا الكتاب من نواد
وأمثال أدبية فى كتاباته .. على أنه كان يضم إلى ذلك غرور
لا يحتمل حتى يزعم أنه هو الذى خلق كل أديب .. وصنع كل
كاتب .. ووضع كل صحفى فى موضعه .. وهذا هو ما كنت أمقته
الرجل .. كما كنت أبغض أسلوبه الصحفى فى الصاعقة إن صح أ
تكون الصاعقة صحيفة فى العرف الصحفى ..

كنت فى ذلك الوقت طالبًا فى كلية اللغة العربية . وكنا مجموع
من الشباب تتفتح نفوسنا وقلوبنا للأدب والشعر والثقافة الأدبية
وكنا نتردد على دار الكتب فى باب الخلق .. ونجلس على « كازين
طلعت » فى باب الخلق .. حيث كنا نلتقى بعدد من شيوخ الأد
والعلم والصحافة .. كانت نفوسهم مازالت معلقة بهذا الميدان الذ

ان فى أوائل هذا القرن مركز الحياة الصحفية والأدبية .. ومنه كانت صدر «المؤيد» و «الجريدة» و «الوطن» و «لسان الحال» وعدد من لجلات .. وعلى قهواته كانت تلتئم ندوات الأدباء والشعراء ..

وفى ليلة كنت أعبر الطريق من أمام قهوة العلم .. ومع زميل لى ن الشبان الأدباء ورأينا أحمد فؤاد جالسًا على عادته أمام قهوة علم .. وكانت الليلة ليلة اليوم الأول من شهر أبريل .. وكان من ادتنا أن نلفق كذبة نروجها على أحد الأشخاص فى ذلك اليوم .. قلت لصاحبى ما رأيك إذا ما عنينا بهذا الرجل وجعلناه موضوع ذبة أبريل فى الغد .. قال وما نصنع فى هذا .. وأسعفنى شيطان شباب فقلت ننعاه إلى إحدى الصحف ، فإذا نشرت الصحيفة نعى كانت كذبة أبريل ناجحة .

وأسرعت مع صاحبى وكتبنا النعى .. وذهبنا به إلى جريدة لأهرام .. وكانت لى معرفة بأنطون الجميل وهو كل شىء فى لأهرام .. وكنت أريد أن أسلمه النعى ولكنى توجست خيفة من أن كشف الأمر .. فافقد ثقة الجميل بى ، وكانت ثقته تعتبر ثروة .. دفعت النعى إلى أحد السعاة ودخل به الساعى إلى أنطون الجميل أسرعنا نحن بالانصراف أو بالهرب .. ومع أننا كنا فى ساعة تأخرة من الليل .. وكنا نشك كثيرًا فى أن يدرك النشر بالأهرام .. لكن هذه الساعة المتأخرة هى التى لم تمكن أنطون الجميل من أن حرى ويتأكد .. وفوجئنا فى الصباح بالنعى منشورا فى أبرز مكان ..

مشفوعًا بعبارات فخمة فى تأبين الفقيد .. وذكر ما له من مكانة فى الأدب والصحافة .. والعزاء لأصدقاء الفقيد والعارفين لقدره وأدبه .

وفى اليوم التالى كتب أحمد فؤاد رسالة فى الأهرام أعلن فيها أنه حى .. ونعى فيها الحاسدين والحاقدين الذين نعوه وهم الأموات . وقال إن الحاسدين والحاقدين نعوا من قبلى الشاعر المتنبى فى مجلس سيف الدولة الحمدانى .

وفى نفس الأسبوع خرجت مجلة «كل شىء والدنيا» التى كانت تصدر من دار الهلال وفيها حديث طويل مع الميت الذى عاد إلى الحياة .. وشتم الحاقدين والحاسدين الذين نعوه وهو على قيد الحياة .

ولكن الذى آلمنى حقًا هو أنه بعد شهرين مات أحمد فؤاد .. وفى هذه المرة اضطرت أسرته أن تقنع أنطون الجميل لنشر النعى بشهادة الوفاة .

احذروا الشعارات

فى روما، يوم كانت روما مركز العالم المتحضر المستنير، كان
رجد عضو فى مجلس الشيوخ اسمه « غراكوس » ثقيل الظل، ثقيل
روح، يجتويه الشعب ولا يحتمله، وكان الرجل يعرف هذا، فعمد
ى أسلوب خداع يقربه من قلب الشعب، ويكسب به عطفه وحبه،
كان فى خطبه وبياناته يندد بجمود مجلس الشيوخ ويتهمه
لإجحاف فى حقوق الشعب، وبذل الوعود الخلابة للطبقات
شعبية بدون حساب، فأحبه الشعب وأقبل عليه.

وكان كلما أسرف فى بذل الوعود بدون حساب، ازداد حب
شعب له حتى صار موضع التقديس والعبادة وضاق مجلس الشيوخ
رعًا بهذا النائب الذى جلس على القمة فجأة على حساب المجلس

وعلى حساب التضليل بالشعب، فعول على أن يقتله بالأسلوب الذى ابتدعه، فاستأجر عضوًا فى المجلس اسمه (دروزوس) عرف بكثرة الثرثرة ليتصدى للعضو (غراكوس) فى حلبة المزايدة، فكان إذا طلب (غراكوس) أن يباع الرطل من الخبز للشعب بأربعة مليمات، طلب (دروزوس) أن يكون بمليمين فقط، فإذا قال (غراكوس) بمليمين، قال (دروزوس) يجب أن يكون الخبز للشعب بالمجان، ولم يلبث الشعب أن انقلب على (غراكوس) وضاق به حتى قتله وصار (دروزوس) قبلة الشعب، وموضع تقديسه، وأغرى هذا « دروزوس » فتمادى فى بذل الوعود البراقة إلى أقصى مدى، ولكن الوقت طال ولم يكن فى الإمكان تحقيق هذه الوعود، وخمدت الحماسة التى كانت تثيرها هذه الوعود فى نفوس الشعب، وما لبث أن صنع مع « دروزوس » ما صنعه مع « غراكوس » من قبل.

هذه القصة التى وقعت فى روما منذ آلاف السنين، عاشت حية بوقائعها على مدى التاريخ، ومازالت حية بيننا نراها تحت أنظارنا كل يوم، وأعنى بها قصة الشعارات وما يكون لها من تأثير وآثار بين جماعات الشعب.

إن قصة الشعارات قديمة جدًّا وما زالت أنجح وسيلة لإثارة الجماهير واجتذابها والسيطرة عليها، لأنها تصاغ فى عبارات موجزة مركزة تخاطب عواطف هذه الجماهير وتضرب على الوتر الحساس

من مشاعرها، ومن المقبول أن تكون هذه الشعارات عنوانًا لمبدأ يجب تحقيقه ويمكن تحقيقه، ولكن الخطر كل الخطر عندما تدخل هذه الشعارات فى باب المزايدات الاجتماعية.. فإنها تحدث أثرًا عاجلا فى إثارة جماهير الشعب وكسب إعجابها، ولكنها سرعان ما تهوى إلى الحضيض، وتصبح مادة للتنكيت والسخرية وموضع المقت من الشعب.

لقد قامت الثورة الفرنسية تطالب بالخبز للشعب، ونجحت الثورة واتخذها زعماؤها وسيلة لتحطيم الإقطاع وحكم الأمراء والنبلاء، ثم انطلق الزعماء ينادون بالحرية والإخاء والمساواة لجميع الناس فى كل الأمم والشعوب، وكان الأمر مقبولا عند هذا الحد ولكن زعماء تلك الثورة انطلقوا فى مجال المزايدات يرفعون الشعارات التى لا تقف فى مدلولها عند حد، ومن هنا كان الخطر على الثورة وعلى زعماء الثورة فإن الشعب الفرنسى المهتاج العواطف الذى قدس (روبسير) ورفعه إلى مقام الألوهية، هو الشعب الذى انقلب عليه ووضع عنقه تحت المقصلة، والشعب الفرنسى المهتاج العواطف الذى قدس الزعيم (مارا) ودفنه مع الخالدين من أبناء فرنسا، هو الشعب الذى عاد ونبش قبره وألقى بجثمانه فى مرحاض.

أبرع الأحزاب فى اصطناع الشعارات فى الدعاية الانتخابية وكسب تأييد الجماهير الشعبية ولكن هذه الشعارات كثيرًا ما لعبت

بمقادير تلك الأحزاب وهزت مراكزها هزًّا عنيفًا، لقد استطاع حزب المحافظين البريطانى أن يحطم حزب الأحرار بالشعارات المصورة التى كان يذيعها على الشعب، ولما انتهت الحرب العالمية الأولى خرج حزب العمال بزعامة مكدونالد بعشرات من الشعارات التى تفيض عسلا وسمنًا وتحمل للشعب الذى عاش على الحرمان طوال سنوات الحرب الأمانى بنعيم الجنات الموعود، وقفز حزب العمال إلى مكان الصدارة وفاز فوزًا ساحقًا فى الانتخابات، وألف زعيمه ماكدونالد الحكومة لأول مرة فى التاريخ البريطانى ولكن بريق الشعارات المسرفة لم يلبث أن اختفى فى ظلام الواقع، وعجزت حكومة العمال عن الوفاء بواحد فى المائة من الوعود التى بذلها الحزب فى الدعاية الانتخابية، وسرعان ما هوى ماكدونالد هو وحزب العمال عن مكانه.

هذا هو الخطر فى الشعارات البراقة المسرفة فى الوعود بدون أى تقدير أو حساب لأنها تحرك خيال الشعب بالأوهام، وتثير عاطفته بالأحلام والعاطفة قصيرة الأجل، كما يقول علماء النفس، لا يمكن أن تصبر طويلا على حال، وإذا ما يذهب البريق، وتزول الغشاوة التى يخلقها هذا البريق عن الأنظار.

وبعض الزعماء فى الجماعات الشعبية يدركون هذا ويعرفون أن عواطف الجماهير لا يمكن أن تصبر طويلا مع شعارات يطول ترديدها، فيعمدون إلى تغييرها بشعارات أخرى، ويعولون على

ـ الشعارات من وقت إلى آخر، ولا يتورعون فى صياغة هذه
ارات عن تملق غرائز الجماهير ورغباتها، وقد تجدى هذه
يلة، ولكنها تكون بمثابة تأجيل لوقف الخطر الذى يكون أعنف
ع.

هذا ما يجعلنى أقول: اقتصدوا فى الشعارات، احرصوا على أن
ن الشعارات بعيدة عن الإيهام، والوعود التى تدخل فى حدود
كان، وإلا فلا مناص من الضرر والضرر الخطير.

الحرب والسلام

هل يمكن أن تزول الحرب إلى غير رجعة وأن يسود السلام وأن تكون المحبة هى العلاقة الاجتماعية بين الأمم والشع

سؤال كبير ألفته أهوال الحرب وشنائعها على الإنسانية من طويل، .. وحاول الفلاسفة والمفكرون، ورجال السياسة والح وأصحاب المثاليات والنيات الطيبة أن يجيبوا عن هذا السؤال بأسلوبه وبما يبلغه تصوره، ولقد عقدت عشرات المؤ السياسية، وخرجت عشرات النظريات العلمية والاجتم وطرح فى معرض الآراء ألف رأى ورأى. ومازال هذا ال الكبير. ينتظر الجواب الحاسم المفيد..

ومنذ نصف قرن دعت أمريكا إلى ميثاق لتحريم الحروب

ل المشاكل السياسية، والإقلاع عنها كأداة للسياسة القومية، تتم تسوية جميع الخلافات بين الأمم والشعوب عن طريق لام، وقد وقع على هذا الميثاق الذى عرف بميثاق كيلوج أكثر من عشرة دولة.. ولكن هذه الأمم خرجت من توقيع هذا الميثاق شد قواها استعدادًا لتلك الحرب العالمية الثانية التى تركت العالم ا محطمًا يعيش على أطلال الخراب والدمار.

ولقد كانت الحرب فى نشأتها عند الإنسان الأول غريزة، هى سمونه بغريزة حب الذات، ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى نظام ماعى فى حياة القبيلة، ثم فى حياة الشعب، ولقد كانت الحرب لة القوة لحياة الأمم والشعوب فى الأزمان الغابرة، بالحرب ت دول وإمبراطوريات، وبالحرب أيضًا تحطمت دول براطوريات وبهذا تحولت الحرب إلى صناعة الجبابرة والطغاة اة. والساسة الذين يتاجرون بمقدرات الأمم والشعوب ليضمنوا سهم أكبر مكان فى صفحات التاريخ ومازالت الحروب تعيش فى ب هؤلاء الساسة يؤججون ضرامها فى سبيل أطماعهم ومآربهم د سئل الكاتب الأيرلندى العالمى «برنارد شو» عن وسيلة طال الحروب فقال: لا شىء إلا أن تأخذوا عشرة من ساسة با الكبار وتعلقوهم فى المشانق.. بعد ذلك لن يجرؤ سياسى آخر أن يتحرك لإعلان حرب أو التفكير فى الحرب.

والشعوب تكره الحروب وتنكرها، وبخاصة بعد أن زاد الوعى

والعلم، وفى كل إنسان منا روح من الاحتجاج والاستنكار للحـ
وأكثرنا على وجه الإجمال يريد السلام.. ويطلب إبطال الحرو
ولكن فى كل فرد منا نزعة حربية مختفية فى تضاعيف نفسه، غـ
فى أعماق وجدانه، وسرعان ما تثبت صرخات الحرب ويعـ
لصوص القبيلة ويدوى هدير المدفع، وكل منا ينظر بالإعجـ
لشجاعة الأبطال فى الحرب وانتصارهم فى المعركة، ولكنها
يشتد ضرامها وتنطلق إلى ساحة الوغى مندفعة فى غير وء
ما دامت الحرب فى سبيل حق ضائع أو حرية ممتهنة، أو كر
محمودة، لأنها تكون حرب لغريزة، وضراوتها غريزة حفظ الذ
التى انبعثت فى نفس الإنسان الأول.

ممكن أن تزول الحرب إلى غير رجعة وأن يسود السلام ا
بشرط واحد، هو احترام الحق والعدل، وأن تبلغ الإنسـ
بالإنسان غايتها وأن تكون المعانى الإنسانية هى الصلة القائمة
الناس، أما إذا بقيت الأمور متروكة لأطماع الساسة وتجار المآ
وأصحاب الحق للقوة، فسيبقى السلام حلمًا لذيذًا يراود النفو
الخيرة والقلوب الطيبة وسيبقى العالم نهبًا للحروب، وفريسة لشر
المطامع والمآرب.

* * *

هذا الفراغ الدينى

كان الدين فيما مضى سياج الحياة الإنسانية، وكانت الفضيلة الدينية صوان هذه الحياة وقوامها، وبهذه الفضيلة كان الناس يتعاملون بالحب ويتعاونون على الخير ويتواصون بالمعروف، وتلك كانت صلة الإنسان بالإنسان.

وفى غمار الحياة المادية التى دهمت العالم بشرورها انتقلت حياة الناس من الدين، وتحللت من الفضيلة الدينية، الأمر الذى ترك فراغًا كبيرًا فى المجال الإنسانى وفتح الطريق أمام المذاهب المادية والفلسفات الإلحادية، لتحطيم القيم والمثل الخلقية التى تربط الإنسان بالحياة، وبما تفرضه من حقوق وواجبات نحو الإنسانية.. وما زالت هذه المادية تطغى وتتجبر حتى أسلمت الإنسان إلى الشقاء

والتعاسة، ولم تعد الحياة الإنسانية حياة المحبة التى دعا إليها المسيح، وحياة السلام التى دعا إليها محمد وإنما هى افتراس القوى للضعيف.. وحرب الإنسان للإنسان.

فى هذا الفراغ من القيم الدينية والإنسانية والعقم من روح الإيمان، سار الإنسان شوطًا طويلا حتى أرهقه التعب وأضناه، يحاول أن يجد الحياة التى يستقر فيها روحه وقلبه، ويجد فيها نفسه وإنسانيته، ولكن على غير جدوى لأن الحضارة المادية الصناعية أعطته متعة الجسد، وأشبعت فيه مطالب الدم واللحم، ولكنها عجزت عن أن تعطيه نبض الروح والقلب، وأن تمنحه فضيلة الإيمان والاستقرار النفسى.. فهو إنسان قلق فزع.. كأنه ساكن جهنم فى أسطورة أفلاطون، لا يحب أن يرى إلا قبحًا، ولا يسمع إلا شرًا، ونظم الحكم التى قامت فى العالم المعاصر باسم الديمقراطية، أو الدكتاتورية أو الاشتراكية.. أو الرأسمالية.. إن هذه النظم على اختلاف أشكالها واتجاهاتها.. قد سلبت الإنسان روح الإنسانية وجعلت صلته بالمجتمع الإنسانى صلة آلية مصنوعة، صلة خالية من التعاطف والتواد والتراحم والشعور المتبادل بين الإنسان وأخيه الإنسان.. وإنما هو فرد يعيش على الولاء للحكومة فى مقابل أن تعطى له العيش.. وفى مقابل هذا المقابل، عليه أن يعطيها نفسه وحياته.. تطلبه للتجنيد.. وتدفعه للحرب وتأمره بالعمل.. وتحدد له سير الطريق.. وتمسك بزمام حريته.. وليس عليه إلا أن يسمع

ويطيع .. وكان من الطبيعى أن يضيق الإنسان بهذه الحياة التى هى أشبه بحياة الرق والعبودية .. وأن يبحث عن واحة يستروح فيها نسيم الحياة الذى ينعش روحه وقلبه بنفحات الرضا والإيمان.

لا يمكن للإنسان أن يعيش بدون إيمان أبدًا .. ويوم أن تحطم فى نفسه الإيمان بالدين، وانفك قلبه عن الفضيلة الدينية، واستهان بمُثلها وقيمها الخلقية، حاول أن يجد الإيمان بالحضارة أو العلم .. أو بأية نزعة من النزعات المذهبية، ولكنه لم يجد فى هذه كلها، أو فى واحدا منها، ما يمكن أن يعوضه عن الإيمان بالدين .. أو ما يجد فيه روحه وقلبه وإنسانيته، وما كان فى مقدور الإنسان أن يصبر إلى النهاية على هذه الحياة الجافة الثقيلة الجامدة .. ومن هنا تيقظت فيه نزعة التدين التى بدأت تتحرك بها روح الإنسان المعاصر، ولهذا قلنا إن الدين هو الطريق الوحيد لخلاص الإنسانية وإنقاذها .. ونستطيع أن نقول إن الإنسانية بدأت سيرها على هذا الطريق، حتى تعوض الفراغ الدينى الذى نعيش فيه.

واستولت مصر على قبرص

وما كانت مصر باغية ولا طاغية، ولكنها لم تحتمل البغى والعدوان، وأصرت على أن تأخذ بثأرها مهما طال الزمن، وكان ذلك شأنها مع قبرص.

وكانت قبرص قد تحولت إلى مركز للشغب والعدوان على مصر، بعد أن حطمت مصر معاقل الصليبيين فى الشام، وطردهم السلطان خليل بن قلوون من عكا وصور وصيدا وحيفا وبيروت، وخيم السكون الرهيب على امتداد ذلك الشاطئ الذى ظل ميداناً لقعقعة السيوف، وحمحمة الجياد طوال قرنين من الزمان كما يقول المؤرخ جيبون، فانهزمت فلول الصليبيين إلى قبرص فى شمال شرق البحر المتوسط، وصارت تثير الشغب ضد مصر. وتتصدى لسفنها

التجارية، وتقوم بالإغارات الخاطفة على ثغورها البحرية، حتى أن ملك قبرص بطرس لوزنبان سير حملة غادرة خاطفة على الإسكندرية ذبحت عددًا كبيرًا من الأهالى، وقامت بنهب المدينة وعادت هاربة.

وكان لابد أن تفزع مصر لردع هذا العدوان. وأن تقطع دابر هذا الشر الذى لا يكف عن البغى، وفزع السلطان الأشرف برسباى لهذا الأمر، فسير عدة حملات بحرية لتأديب قبرص، ولكن القبارصة لم يرتدعوا واستمروا فى أعمال القرصنة ضد الثغور المصرية والشامية، فعول الأشرف برسباى على أن يأخذ القبارصة بجرمهم، وأن يقضى قضاء مبرمًا على هذا الشر الذى ينبعث دائمًا من قبرص ضد مصر.

وحشد سلطان مصر أسطولا من مائة سفينة حربية من مختلف الأنواع والأحجام، وانطلق الأسطول من رشيد وغايته غزو قبرص وتحطيم قوتها الحربية والاستيلاء على كل الجزيرة وضمها إلى مصر.

وعلى بعد بضعة أميال من ليماسول نزلت قوة برية وهاجمت قلعة المدينة وأمام ثغر لارناكا، وعلى مقربة من ذلك المكان الذى دافع فيه جنود الصاعقة الأبطال عن كرامة مصر.. التحمت وحدات الأسطول المصرى فى معركة ضارية مع أسطول قبرص واستولت على بعض سفنه.

وفى اليوم الثانى دخلت القوات المصرية العاصمة نيقوسيا،

واستولت عليها وأخذت ملك قبرص جان دى لوزنبان أسيرًا.

وعاش جنود مصر، سبعة أيام فى احتفالات بهذا النصر الكبير، الذى ثأروا به لأبناء الإسكندرية الذين كانوا ضحية العدوان الغادر، الذى قام به الملك بطرس لوزنيان منذ ستين عامًا!.

وجاء أسطول مصر يحمل ما لا يحصى من الأسلاب والغنائم.. وألوف الأسرى وفى مقدمتهم الملك جان لوزنيان.

وكان يومًا مشهودًا من أيام التاريخ عندما خرجت القاهرة كلها لتستقبل الجيش الظافر.. وسار قادة النصر وجنوده، يشقون بموكبهم العظيم شوارع القاهرة ومعهم الأسرى حتى وصلوا إلى قلعة صلاح الدين.

وفى ميدان القلعة استقبلهم السلطان الأشرف برسباى، وكبار رجال الدولة، ومعهم سفراء الآستانة، وأمراء آسيا الصغرى وشريف مكة.

وهنأ السلطان القادة والجند بالنصر العظيم الذى وضعوا به النهاية الحاسمة لتلك الملحمة الصليبية التى امتدت شرورها العاتية، ومواقعها الغادرة زهاء قرنين من التاريخ.

ونظر السلطان وهو يوزع الإنعامات والمكافآت على القادة والجند، فرأى جان لوزنبان سلطان قبرص فى مقدمة الأسرى جاثيًا عند قدميه، فمال عليه وأنهضه ولاطفه وعامله معاملة حسنة وأعد له منزلا لائقًا فى القاهرة أقام به معززًا مكرمًا.

وجرت مفاوضات مع السلطان الأشرف برسباى، قامت بها البندقية ورودس، وبعض الإمارات والجزر الأخرى فى شرق البحر المتوسط، على ألا تكون مراكز شغب ضد مصر، ولعقد صلح بين سلطان مصر وملك قبرص وعقد الصلح، وأفرج السلطان عن ملك قبرص شرط أن يدفع الفدية مقدارها مائتا ألف دينار، وأن تدفع قبرص لمصر جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار، وأن تكون خاضعة لسلطان مصر، ويحكمها الملك جان لوزنيان باسم سلطان مصر.

وعاشت قبرص تابعة لمصر قرابة قرن من الزمان، فلما غلب السلطان سليم الأول على مصر، صارت قبرص تدفع الجزية لتركيا بصفتها المسيطرة على مصر.

* * *

صراع الأجيال

يحمل إلىّ البريد رسائل كثيرة ، وكلها من شبان تتحرك فيهم مواهب الأدب والشعر والفن ، ويساورهم طموح فى أن يكون لهم وجودهم الأدبى .. وبعض هؤلاء الشبان يقصدون إلى مكتبى ، ويعود بى الذهن إلى الوراء فأذكر ما كنت أجد وأنا فى مثل حالهم شبابًا وطموحًا ، فأتلقاهم بالرضا ، وأفسح لهم فى صدرى ومن وقتى ، وأناقش معهم رغباتهم وآمالهم ، وأبث فيهم ما قد يكون عندى من أمل ينير لهم طريق الحياة .

هؤلاء وهؤلاء ، الذين يرسلون رسائلهم بالبريد ، والذين يحضرون إلى مكتبى شأنهم واحد ، وأمرهم متفق ، منهم من يحمل عددًا من القصائد والمقطوعات الشعرية التى سهر فيها الليالى ،

م من يضم قبضته على قصة أو قصتين يراهما ثمرتين ناضجتين ،
م من يحمل حملا من الزجل والأغنيات ، وتلك هى معارض
ل التى تجول فيها مواهب الشباب فى هذه الأيام ، أما الطلب
وض ، أو المحتوم بعد ذلك ، فهو طلب النشر .. فالنشر هو
د الأمل والطموح عند أولئك الشبان ، وهو باب العبقرية التى
و بهم إلى قمة الصدارة .

وأنا أدرك تمامًا أن النشر له فعل السحر فى نفوس الشباب ،
لك كان يصنع بنا ، ومازلت أذكر أن جدى أقام وليمة فى القرية
لها كل أفراد العائلة لأن مقالا نشر باسمى فى جريدة « كوكب
رق » ، ولكن قضية النشر تحيط بها اعتبارات وعوامل كثيرة
تجعلها قضية ميسرة .

فبعض الشبان يتعجل فيحصد قمحه وهو حشيش أخضر كما
ل المثل ، فقد تكون عند الشباب الموهبة ولكن الموهبة ليست
شىء ، ولابد أن تكتمل بالدرس حتى يستطيع الشاعر أن يقيم
زن لشعره والقصاص أن يكتب قصة لا حدوته ، وصاحب
جل يفرق بين كلام الشارع وما يقال فى معيار الفن ..

وبعض الشبان قد يكون عنده الموهبة التى تأهلت للنضج ، وضم
ذلك درسًا لا بأس به ، ولكن الموضوع غث مبتذل .

وبعض الشبان من حقهم أن ينشر لهم بوصفهم شبانًا يجب أن
وا التشجيع وأن يحرق لهم البخور ، ولكن فرصة النشر

لا تعطيهم هذا الحق، فإن الصحف اليومية تنظر إلى الأدب وا
والفن على أنها مادة ترف، وهى لا تعرض لها إلا بهذا الـ
وليست هناك صحافة أدبية يجد فيها الشباب مجاله .. على ع
بالشباب، كانت هناك الرسالة والثقافة والبلاغ الأسبو
والسياسة الأسبوعية وكلها مجلات أسبوعيةللأدب والشعر وال
وكانت هناك المجلة الجديدة والهلال والمقتطف والعصور،وكلها مجا
شهرية للبحث العلمى والأدبى، وكانت هناك مجلات خ
بالقصص، ومجلات خاصة بالشعر، وكانت كل صحيفة ي
تخصص صفحة من صفحاتها للأدب يوميًا يشرف عليها أديب ك
وفى هذه كلها كنا نجد هناك مجالا للنشر، والصعوبة التى ك
تعترضنا إن تلك المجلات والصحف كانت لا تنشر إلا الناضج
الأبحاث والدراسات والأدب والشعر، لكنها صعوبة أفادتنا كثي
لأنها كانت تفرض علينا أن نبحث وأن ندرس، وأن نر
ما نكتب ومع هذا كان الشاب يسير فى خجل وهو يحمل ما يـ
إلى العقاد أو طه حسين أو المازنى أو سلامة موسى، ممن ك
يشرفون على النشر الأدبى.

أما اليوم فإن النشر أمام الشباب أشبه بطريق مسدود، ولـ
فى لهفتهم على النشر لا ينظرون إلى هذه الاعتبارات، وإنما تضـ
فى نفوسهم ثورة عارمة على الجيل الذى أمامهم، فهم يحسبون
هذا الجيل هو الذى يسد الطريق أمامهم، وهو الذى لا ي

ك الشبان أن ينبغوا وأن يظهروا ما عندهم من إبداع فى الأدب
، وتنقلب القضية إلى قضية الصراع الأبدى بين الأجيال ، إننا
كذلك نثور هذه الثورة على الجيل الذى أمامنا .
كثيرًا ما يحمل إلى البريد رسائل من أولئك الشبان تفيض بهذه
ة وبعض هذه الرسائل تفيض بالشتائم التى تبلغ حد التوقح
نا ، لأنى لم أنشر رسائلهم وقضية النشر كما قلت لك تخضع
بارات كثيرة ، ولكنى مع ذلك لا أغضب ، بل إننى أزداد
قًا على هؤلاء الشبان وألتمس لهم العذر لأنهم ضحايا خيبة أمل
ة ..
قد كان المازنى يقول لى : « إن بين الخير والشر فارقًا دقيقًا
فى دقة الشعرة ، وإن كلمة طيبة تنقذ الشباب من هاوية الشر
طريق الخير ، فعلينا دائمًا ألا نضن بتلك الكلمة الطيبة » .
وهذا صحيح ، ولكنى أعتقد أن الكلمة الطيبة وحدها أصبحت
كفى فى إرضاء الشباب ، ولا يمكن أن تشبع طموحهم ،
أقول غرورهم فإن شباب الجيل يتعجل طريقه ، ويندفع بسرعة
ر إلى غايته .. وليس من الخير أن نترك هذا حتى يتحول إلى
فى نفس جيل لاحق على جيل سابق .
إنها قضية الشباب الموهوب ، شباب نهم إلى ينابيع المعرفة
سانية ، فهل لأولئك الذين يحملون قضية الثقافة أمانة بين
هم أن يجعلوا لهذا الشباب مجالا فى هذه القضية .

طريق الوصول

فى فوضى القيم التى عشناها خلال السنوات الطويلة الماض
تخرب فى نفوسنا وفى كياننا كثير من معانى الحياة القويمة، حتى فا
القواعد الأساسية التى ترتكز عليها أمة لها بنيان وكيان وحياة ،
يكن يعنينا فى منفعة الأمة ما ترك الزمن من أدب وح
وما استحدث من علم وقوة ، ولا ما قضت به سنن الاجتماع
وعملا وطموحًا فى التعلق بأرقى ما فى الحياة من دلائل المجد والـ
وما فى الدنيا من معانى الاستقلال والكمال.

فى تلك الفترة ، فترة فوضى القيم، أهدرنا كرامة العلم -
أصبح العلم سلعة رديئة لا نفع بها ولا جدوى منها ولا قيمة لها
خلق جيل قوى من الشباب ، وأهدرنا مكانة العمل والتفوق فيه

أن حولناه إلى دعاوى وشعارات ، وفتحنا باب الوصول إليه أمام المحسوبين والواصلين ، والذين يجيدون ترديد الدعاوى وحمل الشعارات . فلم يعد العمل مرتهنًا بقوة العلم والقدرة عليه والتفوق فيه ، ولم يعد العلم ولا العمل طريقًا يجد فيه الشباب طموحه ومواهبه وكفاحه ارتفاعًا بقدره وقدر أمته ووطنه .

لم يكن المكان المناسب للرجل المناسب كما يقول سقراط الحكيم . وإنما كان المكان المناسب لغير الرجل المناسب تمامًا إلا نسب المصاهرة والقربى ، فقد كان أقوى الأسباب فى الوصول .

كانت الصلة العضوية طريقًا إلى المنصب الوجيه ، والمرتب الدسم ، والكرسى الوثير ، والسيارة الفاخرة ، والتسلط على رقاب العباد .

وكانت الزلفى من الوسائل الجيدة فى الوصول إلى مكان الصدارة والظفر بأكبر نصيب من الغنيمة .

واحتراف المذهبية ، والتجارة بالشعارات ، وكل ما لا يجمل بالحر ذكره ، هى الأخرى من أقوى وسائل الوصول وأبرز مظاهر الامتياز ، ولم يكن العلم ولا العمل دعامة من دعائم النجاح ، ولا وسيلة من وسائل الوصول .

وفى يوم من الأيام ، وفى مؤتمر قومى عام ، وقف مسئول كبير ونادى بأعلى صوته : إننا لسنا فى حاجة إلى علماء ، فعالم الحشرات يعيش مع الحشرات ويموت مع الحشرات ، إننا فى حاجة إلى أناس

واعيين من أمثال.. فكرى الجزار.

ولقد كان من الطبيعى أن تنتكس حياتنا نتيجة لهذه الأوضاع المقلوبة، وأن تصير إلى وضع خطير يهدد حياة الأمة بالتخاذل. ويقتل فى الشباب الطموح ويزيل من نفوسهم الرغبة فى الكفاح للتفوق فى العلم والعمل، ولماذا يكافح الشباب للتفوق فى العلم، وهو يرى أن العلم سلعة رديئة، وأنه ليس طريقًا إلى المكان المناسب، ولا سبيلا إلى الوصول.

إن العلم سيادة، وأهل المواهب، أهل عزة، يعافون الطريق الذليل، ولهذا كان من الطبيعى أن يهاجر أهل المواهب العلمية الممتازة من مصر إلى أمم تعرف للعلم سيادته. وللعمل عزته، وللمواهب كرامتها.

وشبابنا فى الجامعات يستبد به القلق المفزع، وليس هذا القلق إلا نتيجة متخلفة عن تلك الفترة التى عشناها فى فوضى القيم، لقد عاش هذا الشباب ورأى المئات بل الألوف نالوا أضخم المرتبات، وأرفع المكافآت، ولم يملكوا لذلك أية وسيلة من علم أو عمل، فأى شىء يجدى عليهم العلم أو العمل.

دارت برأسى هذه الحقائق وأنا أناقش جمعًا من شباب الجامعات حضروا إلى مكتبى للتحدث فى مستقبلهم العلمى، لقد قلت للشباب إننا أصبحنا فى عصر لا يكفى فيه النجاح، بل لابد من التفوق فى النجاح، ولا يقنعنا فيه تحصيل العلم. بل لابد من النبوغ فى

العلم ، وتسألوننى : وماذا يجدى التفوق والنبوغ فى العلم ، وطريق الوصول ليس طريق العلم والعمل.

إنها فى الواقع مشكلة خطيرة جدًّا ، وأخطر ما فى المشكلة أنها عميقة فى كياننا الاجتماعى ، ثم هى مشكلة الجيل الصاعد ، ومستقبل الأمة كلها .

إننا نقول : يجب أن يرتبط الأجر بالعمل.

ولكننا يجب قبل هذا أن نقول : يجب أن يرتبط العلم بالعمل .

أشباح العبقرية

أريد أن أناقش قضية اجتماعية هامة .. وهى قضية المخدر وصلته بالنبوغ والفن .. وحث المواهب على التحليق بأوهام العبقرية .. وهى قضية ليست بنت اليوم .. أو من مخترعات هذا العصر .. ولكنها قضية لها أصول قديمة جدًا .. على أنها فى تاريخها القديم كانت محتملة الأثر والتأثير .. إذ كان أصحاب المواهب من الشعراء والفنانين يحسبون أن مهماز المواهب فى الكأس والطأس ومصاحبة النديم ..

ثم تطورت القضية إلى ما هو أخطر .. حين دخلت فى مرحلة الأفيون والحشيش .. ثم بلغت ذروة الخطر حين ظهرت سموم الكوكايين والهوريين والمورفين .. وانتشرت فى المجتمع العالمى بعد

رب العالمية الأولى. فتعلق بها بعض الموهوبين من أصحاب عصاب الضعيفة والأحاسيس المتوترة .. وحسبوها إكسير باة .. وإكسير العبقرية .. وتحت تأثير هذا الوهم سقط الكثيرون رعى .. فإن الإكسير الذى توهموا فيه العبقرية بكل أمجادها .. لم مهم إلا غيبوبة الرشد .. وذهول الإحساس .. وبرود العاطفة سترخاءها والنظر بعين شاردة دامعة .. كأنها عين السمكة حين ج من الماء .. وهؤلاء هم أشباح العبقرية .

هذه المحنة أصابت المجتمع الأدبى عندنا فى الجيل الماضى .. انت الأوهام التى ورثناها عن المجتمع الأوربى وتلقيناها بعامل قليد .. وفى أتون هذه المحنة سقط عدد من الشبان الموهوبين .. تهوا إلى مهاوى الضياع .. ومن هناك يذكر الشاب السكندرى وهوب عبد الحميد سالم .. لقد جاء إلى القاهرة فى العشرينات .. ملة متوهجة من النبوغ .. وقوة ممتازة من الثقافة .. يجيد سبع ات .. ويحيط باتجاهات العصر الفكرية إحاطة شاملة فاحصة .. لأ بآثاره صفحات الصحف اليومية .. والمجلات الأسبوعية لشهرية .. ولكنه لم يلبث أن سقط فى أتون المحنة .. محنة الوهم فى سير العبقرية .. وذهب مشردًا فى مهاوى الضياع .

والشاعر عبد الحميد الديب .. لقد كان موهبة شاعرية فذة .. تحت شاعريته مبكرة وهو لما يزل على باب الحياة .. ولعبت برأسه هام العبقرية .. فأقبل على ذلك الإكسير القاتل .. ولم تحتمل

أعصابه سم ذلك الإكسير الذى كان يحسبه سحرًا .. فكان الانحا
والضياع .. وكان أن ذهب شبحًا من أشباح العبقرية ..

وهناك عدد من هؤلاء الأشباح الذين ذهبوا ضحايا المخد
أو ضحايا الوهم بالعبقرية .. ولكنهم يتفاوتون فى أوهامهم .. ولي
فى المجال سعة للحديث عنهم .. وفى النية .. إذا أسعفنى الو
وطالت بى الحياة أن استوعبهم بالدراسة والتحليل فى كتاب

والحق ، إن وصف هؤلاء بأشباح العبقرية ليس من ابتداعى
ولكنه من ابتداع رجل متخصص تناول هذه القضية بدراسة أد
علمية رائعة .. وهو الطبيب .. والأديب الفرنسى «ديهامل» . ا
تتبع « ديهامل » هذه الظاهرة فى المجتمع الأدبى الفرنسى و
الأدباء الفرنسيين .. وأخذ يلاحظ آثارها بدقة الطبيب فى الفحص
وإنسانية الأديب فى الفهم والوصف .. ثم كتب يقول :

« كلا .. كلا .. إن العبقرية ليست ثمرة للمصادفة أو الإنف
أو الإسراف أو المخدر .. وإلا لكان أمرها هينًا سخيفًا مثيرًا حقًّا
وليست هناك وسائل كيماوية ولا عضوية لتهيئة حالة الإلهام وخ
الكتاب الممتاز.. إن العبقرية انتصار على قوى الانحطاط والموت
وأنا لا أكتب هذه الكلمات لمجرد تخويف الشبان .. ولكن لأء
عن يقين عميق .. فالأفيون والمورفين والأثير والكحول نفسه يو
عند آلاف البؤساء شعورًا ذاتيًّا بالعبقرية .. ولكن هذه السموم
تهب العالم البشرى كتابًا واحدًا ممتازًا .. إنها أوهام تضلل أفهامنا

حوا النوافذ أيها الشباب .. واطردوا الأشباح »
إن الأوهام لا يمكن أن تعطى فكرة صحيحة سليمة .. إنها قد
ى نبضات قوية من التخيلات والتصورات .. ولكنها نبضات
فرة كنبضات القلب المريض .. فلا يمكن أن تهب صاحبها عملا
محكم الصلات متناسب الأجزاء .. هذه قضية وضحت
يقتها .. ولم يعد لإكسير العبقرية المتوهم مكان .. ولا سحر بين
حاب المواهب الأصيلة فى الأدب والفن .. فإذا كان هناك من
ر على استلهام العبقرية من إكسير المخدر .. وغيبوبة الرشد ..
ذلك ليس من قضية الأدب والفن .. ولا فى حسبان الموهوبين
أهل الأدب والفن .. ولكنه خلل فى الإحساس .. ووهم من
ام الأشباح ..

الحقوق والواجبات

أقامت الثورة الفرنسية نظرية الحقوق ، وجعلتها شريع
الاجتماعية فى الحياة ، فقد كانت ثورة جائعة تطلب الخبز، فكا
من الطبيعى أن تكون ثورة حقوق ومطالب ، حتى تشبع البط
الخاوية ، وتكسو الأجساد العارية ، وتنصف الذى لا يجد من الذ
يجد .

وعلى الساحة العامة للحقوق التى تجمع بين جميع الناس . قرر
الثورة المبادئ الثلاثة حقوقًا لكل فرد وكل جماعة ، وهى الحري
والمساواة ، والإخاء وبعد هذا جعلت الحقوق لكل طائفة ، ولكا
جماعة وفقًا لحياتها الاجتماعية ، وأوضاعها المهنية . وصارت ه
الحقوق ومازالت مثار منازعات ومصادمات بين مختلف الطوائف

اصة بين العمال وأصحاب الأعمال، وبهذا تحولت الثورة
نسية إلى ثورة حقوق ومكاسب، ومن هنا استشرى الفساد فى
رة، ومن هنا رأى الناس ما صنعت المقصلة من فواجع
اجتاح الإرهاب من أرواح.

إلى اليوم لم تحقق الثورة الفرنسية مبادئها الثلاثة فى الحرية
خاء والمساواة، فالحرية مازالت مهيضة مضيعة فى منطق السياسة
وة، والإخاء كلمة لا يستشعر لها الناس أى معنى فى تصرفاتهم
معاملاتهم وارتباطهم بالحياة،.. والمساواة خديعة يضلل بها
وياء الضعفاء، والمسألة غاية ما وصلت إليه شعارات تزفع عن
وق التى تعطى لبعض الطوائف، ولم يعد المجتمع الإنسانى
مجتمع طوائف وجماعات كل منها لها حقوقها وامتيازاتها، وهى فى
ل هذا تتعادى وتتخاصم، وليست أية واحدة منها راضية عما هى فيه.

هذه هى نظرية الحقوق وما صارت إليه، وهذا هو وضعها فى
تمع الإنسانى، لم تستطع أن تجعل من هذا المجتمع مجتمع
لمئنان والإيمان والرضاء، ولكنه كما نرى مجتمع القلق والضيق
زاحم والتباغض، إلى آخر ما هو ماثل فى حياة الناس قبل
ية الحقوق التى أقامتها الثورة الفرنسية، أقام الإسلام نظرية
جبات وهى نظرية تبنى المجتمع من أساسه، وتقيمه قوة إنسانية
ونة فى سبيل الحياة والكلام على هذه النظرية له شرح طويل،
عدنا به مقالات قادمة..

الذين يعبدون الشر

من بين طوائف الفرس القديمة طائفة لا تزال منها بقية إلى
فى أرض الجزيرة كانت تعبد الشر، وتقيم له الطقوس، و
لاسترضائه القرابين، ويطلق الباحثون على هذه الطائفة اس
(عبدة الشيطان).

كان من منطق تلك الطائفة أن الخير رحيم فى ذاته. وأنه بط
لا يؤذى ولا يضر فلا حاجة بالإنسان إلى الخضوع له، واصط
الوسائل والقربات لاسترضائه، أما الشر فضار، ومن ط
الأذى والنقمة والتنكيل بالعباد، ولهذا يجب على الإنسان
يسترحمه بالإذعان والطاعة .. وأن يسترضيه بالعبادة، ويتقرب
بكل أنواع القربات.

لم تعد عبادة الشر محصورة فى تلك الطائفة من الفرس، ولا فى
ها الباقية بأرض الجزيرة، ولكنها أصبحت عبادة العصر، ومعتقد
تمع المعاصر، ودين الجماعات والأفراد فى كل موقع، فليس
ير ولا للناس الخيرين تقدير فى حسابهم، لأنهم لا يضرون
يؤذون، والمنفعة عندهم مضمونة ومأمونة، لأنهم يقدمونها بدافع
طبيعتهم الخيرية إنما الإذعان كل الإذعان، وتقديم القرابين
رق البخور، فذلك واجب محتوم فى معبد الشر.

وكان للشر فى العصر القديم اسم واحد يعرف به ويدل عليه،
الشر، أما اليوم فقد أصبح للشر عشرات الأسماء، وعشرات
شكال، وهى أسماء تدعو إلى العجب فقد يكون من أسمائه،
يم، أو الصالح العام، أو الحرية، أو الديمقراطية، وهى على أى
أسماء لم توضع للشر قط، إنما يستخدم الشريرون كل براعتهم
قتهم لفرض عبادة الشر تحت شعار من هذه الألفاظ الطيبة
رة، والتمويه بها على الناس، حتى أصبحنا نجد من هؤلاء
ريرين من يستحلون ذبح الشعوب. وتلطيخ الأرض بالدماء،
ل الأمم جوعًا، باسم الشرف القومى، والصالح العام،
فاهية للعالم.

لقد استشرت عبادة الشر، وتمثل فيها كل أسلوب من أساليب
روت والطغيان فكان من أثر ذلك أن ضعفت الأخلاق، وتحللت
مائر، وانطوى الناس على الاستكانة، لأنهم لا يعيشون

إلا بالرهبة ، ولا يحسبون إلا حساب الرهبة .

لماذا ينجح الرجل الشرير ، ويخفق الرجل الخير ؟

لماذا يفوز الرجل المتسلط ويخفق الرجل الطيب ؟

لماذا يسود الظالم ، ويخذل الرجل العادل ؟

لماذا يقف الطاغية المستبد معظمًا مبجلا ، ولا يجد المنصف الم
إلا الاستهانة ؟ لأن الناس أصبحوا لا يعبدون إلا الش
ولا يحسبون إلا حساب الرهبة .

عودة الشيطان

عاد الشيطان إلى الحياة كيانًا متجسدًا فاسد الروح، يفرض نفوذه على مجتمع الإباحة والجنس والمخدرات ويستغل فى الناس الفراغ الروحى الذى خلقته المادية العلمية ليهوى بهم مهاوى الضياع، فكن على حذر وإلا سقطت فريسة بين براثن الشيطان،

هذا هو التحذير الذى أعلنه البابا بولس السادس فى خطاب وجهه إلى العالم عن الشيطان أمير الظلام، والعدو الأول للبشرية، وأكد البابا فى خطابه أن الشيطان ليس رمزًا، ولكنه كيان حى موجود بالفعل يتربص بالناس ويفتنهم عن دينهم، ويفسد أرواحهم لأنه فاسد الروح.

وعلى أثر خطاب البابا خرجت صحيفة الفاتيكان وفيها بحث

مستفيض عن الشيطان ملأ ثمانى صفحات، واشترك فى كتابته سبعة من علماء اللاهوت الكبار، وقد أكدوا رأى البابا بأن الشيطان شخصية متجسدة موجودة بالفعل، وأعلنوا أن الإيمان بوجود الشيطان وتجسده أصل من أصول المسيحية، وأنه المسئول عن الفساد الروحى بين الناس، وأنه يظهر حينما يختفى الإيمان.

ومسألة وجود الشيطان وتجسيده مسألة لها تاريخ طويل فى المسيحية، تختفى ثم تعود إلى الظهور، ففى عصر النهضة أعلن أتباع المذهب الإنسانى أن الوجود الشيطانى قد اختفى، وأن الناس قد أصبحوا فى مأمن من فساد الشيطان، ولكن هذا الاختفاء لم يدم طويلا، فقد عاد الشيطان إلى الحياة من جديد بشرهه وفساده وجسده فى أثناء حركة الإصلاح الدينى التى قام بها لوثر وكلفن، ويمكن أن نقول إن القرن السابع عشر كان عصر الشيطان والأرواح الشريرة فى تاريخ المسيحية، فقد كان التفكير الدينى كله خلال ذلك القرن منصرفًا إلى مطاردة الشيطان، ومطاردة الأرواح الشريرة التى جلبتها عبادة الشيطان.

وكان الاعتقاد أن الشيطان قد اختفى إلى الأبد فى هذا العصر الحديث، بعد أن فتح العلم فتوحاته وبعد أن سيطرت المذاهب المادية على الأذهان والأفكار، وأصبح الناس لا يؤمنون إلا بالعقل، وألا يكون موجودًا ما لا يدخل فى نطاق هذا العقل، وكان الاعتقاد أن هذه المادية العلمية والعقلية ستحول الدنيا إلى

جنات عدن، وأن تلك المذاهب الاقتصادية التى تحصى حياة الناس بالأرقام وأجزاء الأرقام ستوفر لهم السعادة والأمن والاطمئنان، ولكن الإنسان منى بخيبة أمل كبيرة لأنه لم يجد إنسانيته فى طغيان العلم، ولا فى جفاف العقل، ولا فى ضيق المادية وجمودها، ومن هنا كان ذلك القلق الذريع الذى يستبد بإنسان العصر ويحطم أعصابه، ومن هنا أيضًا عاد الإنسان يبحث عن نفسه من جديد، وإنه ليفكر فى عصبية، لعله يجد ما يملأ ذلك الفراغ الروحى الذى خلفه فى نفسه دين العلم والعقل والمنفعة المادية، وعلى مفترق الطريق يقف المجتمع المعاصر قلقًا حائرًا، فمن الناس من ينشد العودة إلى الله فى رحاب الدين، ومنهم من يتجه إلى صوفية مستغرقة تريح أعصابه من قسوة الحياة، ومنهم من يبتغى الغيبة والنسيان بالانغمار فى مجتمع الجنس والمخدرات، وهو ما يسميه البابا بمنطقة نفوذ الشيطان.

والاعتقاد فى الشيطان أقدم بكثير من المسيحية، والنظرية الإسلامية عن الشيطان قريبة جدًا فى جوهرها من النظرية المقررة فى الاعتقاد المسيحى، وللإمام جمال الدين ابن الجوزى المتوفى عام ٥٩٧ للهجرة كتاب سماه « تلبيس إبليس » وضع فيه الشيطان موضع المسئولية فى كل ما وقع من الزيغ والضلال والفتن والمحن فى جميع العقائد والديانات، وأنه مازال يتلصص على الناس فى ليل الجهل. وبيداء الضلال حتى عبدوا الأصنام، واختلفوا فى العقائد

والأفعال ، ويمضى ابن الجوزى فى تعقب الشيطان بالمسئولية ، فهو المسئول عن ضلال العلماء ، وعن طغيان الحكام ، وعن شطحات المتصوفين ، وزيغ العباد وفتنة الزهاد ، وخرافات العامة ، وانحرافات المنحرفين ، ونقل ابن الجوزى عن زيد ابن مجاهد أن إبليس الذى هو الشيطان – له خمسة أولاد جعل كل واحد منهم على شىء من أمره وهم ، نبر ، والأعور ، ومسوط ، وداسم ، وزكنبور فأما نبر فهو صاحب المصيبات الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية ، وأما الأعور فهو صاحب الزنا الذى يأمر به ويزينه ، وأما داسم فهو الذى يدخل يختلق الأخبار الكاذبة على الناس ، مما نسميه اليوم بالإشاعات – وأما داسم فهو الذى يدخل مع الرجل إلى أهله ويريه العيب فيهم ويغضبه عليهم ، وأما زكنبور فهو صاحب السوق الذى يركز رايته فى السوق .

وهكذا عاش الإنسان ، من كل ملة ونحلة ، وكل دين وعقيدة ، وكل رأى ومذهب وهو يلعن الشيطان الذى يسمونه إبليس حينًا ، ويعلزبول حينا آخر ، ولو أننا أحصينا اللعنات التى صبها الإنسان على الشيطان وجسمناها لناءت بحملها هذه الأرض ، والواقع أن هذه اللعنات ليست إلا أوزارنا ، ومعانى الشر فى نفوسنا ، إن الإنسان لا يعترف مطلقًا بنقص يلحقه ، ولا بشر يأتيه ، ولكنه دائمًا يحمل هذا على غيره ، ولا يجد أمامه مطية ذلولا لحمل هذه الأوزار

الشرور إلا الشيطان، ويبدو أن الأمر سيبقى كذلك مادام الإنسان غارقًا فى الشرور والأوزار.

وفى أسطورة قديمة أن عالم الجن بعث إلى بلاط الملك « رتار » حلة فاخرة لتكون هدية إلى أجمل أهل البلاط منظرًا، وأطهرهم خبرًا، ودليل الجمال والطهر. أن تكون الحلة سابغة محكمة على من لبسها وأقبل كل من فى البلاط يجربها على قوامه وهو يتمنى أن كون له هدية نادرة وعنوانًا بين أهل البلاط على جمال المظهر طهارة المخبر، ولكن الحلة كانت لا تبدو محكمة على أحد منهم، بهى على هذا أوسع من عرض الفضاء. وعلى ذلك أضيق من سم لخياط، طويلة الذيل على البعض قصيرة على البعض، فأحجموا ندعورين، وقالوا إنها حلة ملعونة يسكنها الشيطان، والحق أن لشيطان لم يكن فى الحلة، ولكنه كان فى نفوسهم التى لا تنطوى على شرف وطهر وجمال، فعندما تقدمت « جنلاس » ذات الشرف والطهر والعفاف، وارتدت الحلة بدت عليها محكمة النسج سابغة لقوام والهندام.

فمتى تنطوى نفوسنا على الشرف والطهر والجمال، حتى نريح أنفسنا من العناء، ونرحم ذلك الشيطان المسكين من اللعنات.

احذر الشهرة ..

احذر الشهرة فإنها خطر على مواهبك وعلى أدبك وفنك .. إنها بريق من المجد .. ولكنها قد تكون بابًا للضياع .

نصيحة أسداها « ديهامل » العظيم إلى كل أديب وفنان .. وهى نصيحة التجربة الصادقة والنظرة الثاقبة .. نصيحة الحق والصدق للذين يطلبون الشهرة .. والذين يجلسون فى قمة الشهرة على السواء .

إن للشهرة تكاليف ومتاعب .. ولا شك أنها ترهق الإنسان فى حياته الخاصة .. وتحد من حريته الشخصية كثيرًا .. فلا يمشى بين الناس ..ولا يتعامل معهم .. ولا يتصل بالمجتمع .. ولا يمضى فى أمر من الأمور .. إلا وهو يحسب حساب هذه الشهرة . ويقدر لها ما يليق

وما لا يليق .. ومن ثم يعيش عيشة ثقيلة متكلفة .. كما أن كثيرًا من وقته يضيع فيما لا يجدى ولا ينفع .. وكل هذا على حساب أدبه وفنه .

ولكن خطر الشهرة الأكبر أنها تغرى الأديب أو الفنان بالاستسلام .. إن مجد الشهرة قد يسكره .. وبريقها قد يملأ نفسه بالزهو والغرور فيعيش فى أدبه وفنه على حساب شهرته لا على حساب مواهبه .. ومن هنا يكون الخطر الذى يحطم مواهبه .. ويحطم كل المقومات التى بلغت به مكانة الشهرة .. كثيرون من الأدباء والفنانين خدعتهم الشهرة .. وأسلمتهم للضياع والنسيان .. لأنهم جعلوا من الشهرة غاية يعيشون على حسابها .. ونسوا فى هذا مسئوليتهم الفنية والأدبية .. ونسوا أنها مسئولية تقتضيهم الجهد والتضحية دائمًا .. وتحثهم على الخلق والإبداع والتجدد فى كل موقف .. وبهذا نسوا أنفسهم .. ونسيتهم الشهرة .

كان القصاص الفرنسى « إسكندر ديماس الكبير » موهبته كبيرة فى فنه . وقد نال بمواهبه شهرة كبيرة ومكانة مرموقة بين أدباء عصره .. ولكنه حسب أن الشهرة هى كل شىء . وانصرف عن الاعتماد على مواهبه .. وصار يعتمد على صغار الأدباء والبائسين منهم . فكان يشترى منهم قصصهم .. ويذيعها بين الناس باسمه .. فتأخذ حظها من الرواج والذيوع اعتمادًا على شهرة الرجل .. ولكن لم يلبث الناس أن اكتشفوا هذا .. وتبين لهم الضعف فى إنتاج القصاص الكبير .. وفى هذا ضاعت شهرته ومكانته .

وفى مطلع الشباب كنت أشهد مجلس الشاعر حافظ إبراهيم .. وكان مجلسه لفيفًا من الأدباء والصحفيين .. وفى مرة جاء إليه شاب ينتسب إلى جمعية من الجمعيات يستنجزه أبياتًا وعده بها فى تشجيع مشروع لهذه الجمعية .. فتململ حافظ رحمه الله فى مكانه واهتز .. ثم أنشد بيتًا أخذ يردده بأدائه الفخم .. ثم مال على أحد الشبان الأدباء وقال له : اكتتب فى المشروع ببيت .. ومال على آخر وقال : حسبك أنت أن تكتتب بشطر بيت .. وأخذ الحاضرون يلبون الطلب .. وأخذ كل يكتب بقدر طاقته وغنائه فى الشعر .. حتى تألف من ذلك عدة أبيات أخذها حافظ وصقلها بذوقه وأرسل بها إلى الجمعية ، ونشرت فى الصحف باسم الشاعر الكبير مصحوبة بألقاب التفخيم والتعظيم .. وكان فى المجلس رجل له لسان وبيان فقال له : إنك رجل أصبحت تعتمد على شهرتك لا على قدرتك .. ومعنى هذا أنك انتهيت .. وأراد حافظ رحمه الله أن يدافع عن نفسه فقال : وماذا أصنع وهم يحرصون على أن ينتفعوا باسمى .. كأن اسمى تميمة .. فيأتون إلىّ يطلبون شعرى تشجيعًا لمشروعاتهم التى يسمونها خيرية .. ويحسبون أن هذا مجال للشاعر .. أومن موضوعات الشعر .. ومن يدرى .. لعل بائع البطيخ يطلب منا باسم الخيرية أو الوطنية أن نصنع له شعرًا يروج به سلعته وكذلك يفعل بائع الباذنجان أو بائع الفجل والجرجير .. وهذه هى جناية الشهرة علينا .

أذكر أنى كنت مع أديب من أدباء مصر الكبار رحمة الله عليه .. ألنى الرأى فى مقال كتب فى إحدى المجلات ، فقلت إنه مقال ته باسمك لا بمواهبك .. قال : وماذا تعنى بذلك ؟ قلت : أعنى أن س سيعجبون به لأن اسمك فى صدره وفى ذيله ولن يكون له فى سهم أكثر من هذا .. وفهم الأديب الكبير ما أعنى .. وقال : الحق أسألك الرأى لأنى كتبت المقال بالمعنى الذى أشرت إليه .. لأنى ته فى ضيق من الوقت .. ولكن هل تحرمنى من الانتفاع بشهرتى سمى .. قلت : كلا .. ولكنى أرجو أن تكتب دائمًا بما يؤيد هذه هرة ويؤكدها .. لا أن تكتب على حساب هذه الشهرة .. لأنه ساب سرعان ما ينفذ وتضيع أنت فى مهاوى الشهرة .

على أن الشهرة ليست دائمًا دليل المجد والعظمة حتى تجعلها اية فى حياتك الأدبية والفنية فما اشتهر أحد فى الناس كشهرة حا » ولا ذاع كتاب فى المجتمع المصرى مثل ما ذاع كتاب « بدع » فإذا كنت تعمل للشهرة فلا تجعل هذه الشهرة غايتك فى ياة .. وقمة مجدك الأدبى والفنى .. بل احذر أن تكون الشهرة لرًا على مواهبك .. وعلى ما بلغت من أدب وفن ..

العودة إلى الحرية

الحرية أمر صعب المنال والاحتمال ولا يمكن أن تكتمل الـ
لشخص إلا إذا اكتملت فيه عناصر السيادة الذاتية، ولا تكفى
نقول للشخص أنت حر فيصير حرًّا.

بل لابد أن يكون فى طبعه الاستعداد لتقبل الحرية والقدرة
احتمالها، وأن تكون عنده الدوافع النفسية والأخلاقية التى تد
إلى طلب الحرية والحرص عليها، وفى مقدمة هذه الدوافع الإ
والأنفة والاعتداد بالنفس ومعرفة الواجب والتضامن مع المجتم

ولقد قلت من قبل إن الحرية هى المسئولية، فالقانون يع
القاصر إذا بلغ مبلغ الرجال حرية التصرف فى ماله وفى شـ
نفسه، أى أن القانون وضعه فى موضع المسئولية عن ماله ونفـ

ى قدر شعوره بهذه المسئولية وتقديره لتبعاتها وقدرته على
وض بها يكون دليلًا من أدلة الوجود فى المجتمع ، وإلا فما أحراه
يعود قاصرًا يعيش تحت وصاية أخلاقية .

ولقد كنا نناضل الإنجليز عن استقلالنا وحريتنا ، وكانوا يأبون
نا ذلك بحجة أننا لسنا بأهل للاستقلال والحرية ، وليست عندنا
فاءة لنتحمل هذه المسئولية . فكنا نحاول جاهدين أن نثبت
نيا كلها وأن نشهد العالم أجمع على أننا أهل للحرية والمسئولية
ا وعملًا وخلقًا ، ومن هنا نشأت فى الشعب روح التنمية الذاتية ،
ار الفرد بل المجتمع المصرى كله ينمو من الداخل إلى الخارج
ذاتيًا طبيعيًا ، كما هو الشأن فى الأجسام الحية النامية ، ومن
ل هذا النمو الذاتى ظهر فى مصر ذلك العدد الضخم من أعلام
كر والأدب ورجال القانون والفقه والاقتصاد والعلم ، وظهرت
المشروعات الضخمة النافعة التى كانت عنوانًا بارزًا فى تحقيق
ستقلال الاقتصادى للبلاد .

فالحرية كما عرفناها فى الجيل الماضى سلوك وأخلاق ، وعلم
مل ، إنها المسئولية بكل ما تفرضه من تبعات ، أما فى هذا الجيل
د تغير مفهوم الحرية ، وكان من الطبيعى أن يتغير هذا المفهوم .

إن أبناء هذا الجيل يفهمون الحرية فهمًا هينًا ، ومبلغ ما عندهم
تحقيق الحرية أن نصدر قرارًا بذلك فيصير الناس أحرارًا ،
صبح كل فرد مرخى العنان مطلق السراح ، ولأبناء هذا الجيل

العذر فى ذلك ، لأنهم عاشوا فى جيل الفرد الواحد الذى يعط
ويمنع ، الجيل الذى لا ينمو فيه الشخص ذاتيًا من الداخل إ
الخارج ، ولكنه لا ينمو إلا بإضافة خارجية ، هذه الإضافة من ح
صاحب الأمر وحده .. فهو الذى يصنع بأى شىء ما شاء طو
وعرضًا أو اختزالاً فى الحياة ، وفى مجتمع مثل هذا ينسى الناس عا
المسئولية وتبعاتها ، ويؤثرون العمل تحت إشراف غيرهم ، و
يكونوا عبيد أمره وإشارته ، ولابد أن يفقد هذا المجتمع روح المب
والعقيدة ، وروح الألفة والتضامن .

حضر إلى مكتبى عدد من الشبان وجلسنا نتحدث عن الحر
وقضيتها ، وهالنى ماسمعت ، أننى أعرف جيدًا التفسير الحقيق
اجتماعيًا ونفسيًا لمدلول الحرية عند أبناء هذا الجيل ، وأعتقد صاد
أن اللوم ليس عليهم ، ولكن الجديد الذى أضافته مناقشة الشبا
إلى ما أعرف هو أنه لا يكفى فى إعادة الحرية أن نقول لشباب هذ
الجيل أنتم أحرارا ، بل لابد أن نربى شبابنا على الحرية وأخلاقها
وأن ننمى فيهم روح المسئولية والاضطلاع بتبعات الحرية .

تمنياتنا الطيبة

كنت فى مرة أتحدث مع المغفور له الإمام المراغى فى بعض شئون العامة التى تهم الناس فى مصالحهم وحياتهم، واقتضانى سياق الحديث أن قلت:

أسأل الله أن يحقق لكل إنسان ما يتمنى..

فأخذنى الشيخ الوقور رحمه الله بنظرة من نظراته الحادة، ثم بتدرنى قائلاً: أهذا دعاء للناس أم دعاء عليهم؟..

قلت: بل هو دعاء لهم..

قال: كلا، وإنما هو دعاء عليهم بالبوار والهلاك، فلو حقق الله كل إنسان ما يتمنى لهلك الحرث والنسل، ولما عاش الناس فى خير بدًا، ألا ترى إلى الطبيب، أنه يفتح عيادته وهو يتمنى مزيدًا من

المرضى وأصحاب العلل، والمحامى يفتح مكتبه وكل أمنيته أن
حشدًا من أهل القضايا والخلافات التى لا تنقطع، وهذا الحانوتى
وصاحب الفراشة، وقارئ القرآن بالصوت الرخيم، إنهم جم
يتمنون رواج بضاعتهم، وليس رواج هذه البضاعة إلا فى مزيد
الموت، والأعجب من هذا كله، فإنى أعرف من الناس ناسًا
أمنياتهم وتمنياتهم أن يصلوا إلى غايتهم ولو على أشلاء إخوانهم
وكان بعض الموظفين يدعو الله أن يعجل بموت رئيسه حتى يرقى
درجته ويتقلد منصبه.

قلت: هذا لا يكون إلا فى مجتمع غير ناضج، أما فى المجتم
الناضج إنسانية وأخلاقًا وتقديرًا للمسئولية وشعورًا بالواجب فـ
الطبيب يدرك أنه صاحب رسالة إنسانية وليس يسعده إلا أن ير
الناس كلهم أهل صحة وعافية، والمحامى يقدر أنه يعمل لمه
اجتماعية إصلاحية فكل ما يتمناه أن يرى الناس جميعًا متحاب
متعاونين فى الخير، والحانوتى وصاحب الفراشة وقارئ القرآ
يشعرون بأن عملهم ليس تجارة وبضاعة ولكنه نهوض بحق التكر
الإنسانى لأولئك الذين فارقوا هذه الحياة، والمواساة للمصاب
بفقدهم الباقين على الحياة، وفى هذا المجتمع الناضج لا يكون هنا
مكان لأصحاب الأمزجة المنحطة الذين يتمنون زوال النعمة ع
غيرهم حقدًا وحسدًا وطمعًا فى حظوظهم والجلوس فى مكانهم

فهز الشيخ المراغى رأسه وقال فى لهجة من اليأس: ولكن مز

ج هذا المجتمع؟
والواقع أن التمنيات التى يرددها الناس فيما بينهم تعتبر أصدق
ـ عن الرغبات التى تسيطر على نفوسهم واللهفات التى تمتلئ بها
عرهم، ثم هى صورة صادقة للمجتمع الذى يعيشون فيه،
وح التى تسود هذا المجتمع، فإذا أحسست فى تمنيات الناس
ب والتعاطف وإيثار الخير والاتجاه إلى الغايات الإنسانية الشاملة
ى الناس فثق بأن ذلك دليل على وجود مجتمع ناضج، ومجتمع
م النفس.
ونحن نعيش فى هذه الأيام مواسم التمنيات والدعوات، منذ أيام
قبل إخواننا المسيحيون الذين يسيرون وفقًا للتقويم الغربى
ـ الميلاد، وبالأمس احتفلنا جميعًا بعيد رأس السنة الميلادية، وبعد
م يحتفل إخواننا المسيحيون من أبناء الطوائف الشرقية بعيد
لاد، ثم يكون احتفال المسلمين بالوقوف على عرفات وعيد
ضحى المبارك، إن سلسلة متتابعة من الأعياد والمواسم الدينية
نسانية التى تتبادل فيها التمنيات، ونضرع إلى الله بالدعوات
اذا تكون تمنياتنا ودعواتنا فيما نريده لأنفسنا ولغيرنا.
مسيحيون ومسلمون، ولكنهم جميعًا على طريق واحد، هو طريق
ير والحق والإنسانية الذى دعا إليه المسيح ومحمد عليهما السلام،
ان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يبرز هذا المعنى فى وحدة الطريق
لغاية إذ جاءت هذه الأعياد والمواسم فى هذه الآونة بالذات فى

نسق متتابع من الأيام.

فما أحرى تمنياتنا الطيبة، ودعواتنا الصادقة، أن تتصاعد إلى على غاية واحدة وطريق واحد، هو طريق الخير والحق والكر الإنسانية التى دعا إليها عيسى ومحمد، والتى يجب أن ينشد الجميع.

العادات والتقاليد
فى معركة البناء

العادات والتقاليد ككل شىء حى تكافح فى معركة البقاء.. بل إنها أشد استماتة وإصرارًا فى الكفاح.. ولهذا لا تتغير العادات والتقاليد فى الأمم إلا فى بطء شديد.. وقد تبقى صامدة، اليوم تمارس بعض العادات والتقاليد التى كان يمارسها أجدادنا المصريون القدماء على ضفاف النيل..

وشم النسيم الذى احتفلنا به أمس الأول إنما هو بعاداته وتقاليده عيد وطنى كان يحتفل به أجدادنا المصريون.. فليس شم النسيم عيدًا أو موسمًا دينيًّا كما يحسب بعض الناس.. وإنما هو عيد الربيع.. عيد الزرع والنماء.. كان يحتفل به أجدادنا فى مصر قبل رسالة المسيح.. وإنما حسبه الناس عيدًا مسيحيًّا لأنه يأتى عادة عقب

أسبوع الفصح وعيد القيامة .. فظنوه متممًا لأسبوع الفصح ، ولكنه فى الحقيقة موسم قائم بذاته .. وإن طغت عليه تقاليد الطعام المألوفة عند إخواننا المسيحيين بعد خروجهم من الصوم .. مثل السمك المملح والفسيخ والبيض الملون وهى أطعمة كان يتهادى بها المسيحيون والمسلمون فى المجتمع المصرى فى خميس العهد الذى يسبق عيد القيامة وشم النسيم .. ويقول المقريزى : إن خميس العهد كان من المواسم الحافلة فى المجتمع المصرى .. فكانت الدولة الفاطمية تضرب عشرة آلاف دينار من الذهب توزعها على الناس .. وكان الأقباط يطبخون العدس المصفى ويهدونه إلى المسلمين مع السمك والفسيخ والبيض .. ولهذا عرف هذا الخميس فى المجتمع المصرى باسم خميس العدس وكان يعرف فى الشام باسم خميس الأرز والبيض .

ويذكر على مبارك فى كتابه « علم الدين » ، أن المصريين القدماء كانوا يحتفلون بشم النسيم احتفالاً رائعًا .. فكانوا يخرجون فى مهرجان نيلى ضخم ينحدر من أعلى الصعيد وهم يرقصون ويهرجون ويرددون الأغانى والأناشيد .. ويلوحون بالسعف والأغصان وجدائل القمح ، ويحتشد الأهالى على الضفتين .. لمشاركتهم فى الغناء والرقص .. والمرح .. والسرور ، وكان هذا المهرجان الوطنى الرائع يستمر أسبوعًا على امتداد النيل .

ولكن شم النسيم تحول عندنا إلى تقليد سخيف .. فنحن لا نشم

فيه نسيمًا، وإنما نشم فيه روائح الفسيخ والسردين التى تزكم الأنوف.

لماذا لا تعمل وزارة السياحة على إحياء ذلك المهرجان النيلى فى الاحتفال بشم النسيم برقصاته وأغانيه ومظاهره وتقاليده الفرعونية.. ولماذا لا تستغل هذا الموسم استغلالاً سياحيًا، وهى لو فعلت لحصلت من ذلك على ربح وفير.. فلا شك أن هذا الموسم بتقاليده الفرعونية سيكون قبلة السائحين من أنحاء العالم.. ولنا فى جنون الشعب البريطانى بآثار توت عنخ آمون دليل واضح على ذلك.

نحن .. والزمن

دقت الساعة عند منتصف الليل .. مؤذنة بانتهاء عام مضى فى ذمة التاريخ ، واستقبال عام جديد على امتداد التاريخ .. هكذا يحسب الناس .. وهم فى حسبانهم يقدرون فى دقات الساعة لحظة فاصلة بين زمن وزمن ، وتاريخ وتاريخ ، وعلى هذا التقدير يحصون أيامهم وأعمالهم فى الحياة .

هذا التقدير الذى يعيش به الناس فى تقسيم الزمن إلى أعوام ، وإلى شهور وأيام ، بل إلى ساعات ودقائق ، ليس حقيقة فى ذاته ، فالزمن لا وجود له بهذه الصورة المحدودة التى نتصورها ، وليس هناك ما نسميه بالماضى والحاضر والمستقبل ، وإنما نحن فى هذا الكون نعيش بعقول محدودة ، ومشاعر لا يتعدى مداها ما يقع تحت

سارنا ويصل إلى مسامعنا، ومن هنا كان تصورنا للزمن هذا صور الضيق المحدود الذى يتلاءم مع إدراكاتنا وتحتمله عقولنا، ا أشرقت الشمس علينا كان ذلك نهارًا، وإذا غابت عنا كان ك ليلًا، ومن النهار والليل يكون ما نسميه باليوم، ثم نمضى حصى هذه الأيام فى شهور، ثم نحصى الشهور فى أعوام، ومن صيلة الأعوام يكون ما نسميه بالتاريخ، بل لقد بالغ الإنسان فى ا التقدير المحدود لحساب الزمن، فقسم اليوم إلى ساعات، ساعات إلى دقائق، والدقائق إلى ثوان وثوالث، وصنع لحساب ك تلك الآلة الدقاقة التى نسميها بالساعة، وما هى فى الحقيقة إلا : لإحصاء لحظات حياتنا، وخطوات أعمارنا، وتذكيرنا دائمًا لحظة المحتومة.

عام مضى من عمر الزمن، وعام أتى فى حساب الزمن، هكذا در ونتصور، لأننا نتصور بتقديرنا المحدود أن الزمن شىء حرك، وأنه هو الذى يتحرك بنا من الماضى إلى الحاضر ثم إلى ستقبل، والحقيقة أن الزمن لا يتحرك مطلقًا، وإنما نحن الذين حرك، فالزمن كما يقول أينشتين هو الحركة فى المكان، فالإنسان ذى لا يتحرك فى مكانه لازمن له ولا عمر ولا حياة، ونحن فى عالنا العامية نصف الشخص الذى لا يتطور ولا يتقدم بأنه لا يروح عليه الزمن ولا يجىء»، ونقول فلان كما هو من يوم خلق، وهذا كناية عن أنه إنسان غير متحرك، وبالتالى فهو غير

متقدم ولا متطور ولا حياة له.

إن الزمن لا يسيطر علينا، ولا يصنع حياتنا، نحن الذين ن
الزمن نتحرك على امتداد المكان، وكلما كان تحركنا قويًا، وانطا
بهذا التحرك إلى المدى البعيد، كان زمننا مباركًا، وحياتنا مثم
وأعمارنا أطول وأجدى وأنفع، وهذا هو ما نسميه الحياة بالعر
فالضعفاء المتخاذلون الذين لا يتحركون لا زمن لهم، ولا
لحياتهم فى حساب هذا الزمن، ولا يمكن أن يكون فى حياتهم
مضى وعام أتى، ولكنها شمس تشرق وشمس تغرب، يوم. يأتى
يوم يذهب، وإنما الأقوياء العاملون المتحركون هم الذين يصن
الزمن، ويسيطرون على الحياة أيامًا وأعوامًا، فتكون الحياة بهم
على امتداد الزمن وما نسميه بتعاقب الأعوام والسنين.

فلتكن حياتنا حركة نصنع بها الزمن ونحقق بها ما نريد، ون
بحق وصدق، أنه عام جديد.

أمام الموت

لقيت خطاب تهديد بالقتل، والجريمة التى أستحق من أجلها
ى عند كاتب الخطاب، أننى وصفت الخومينى بأنه دجال، لأنه
إن محمدًا صلوات الله عليه وسلم لم يكمل، أولم يوفق فى تبليغ
لة الإسلام، وسيجىء المهدى المنتظر فيكمل تبليغ الرسالة
ى العالم كله.

ريطلب منى كاتب الخطاب أن أكذب كل ما قلته فى شخص
مينى الكريم، وأن أعلن أن المهدى المنتظر عقيدة إسلامية سنّية
ميّة، وأن عظمة الإمام آية الله روح الله خومينى، وأمهلنى لذلك
ة عشر يومًا، وإلا فسيكون العقاب رصاصة قاتلة فى العين
مرى.

وليس هذا الخطاب وحده، فقد تلقيت عددًا من الخطا
المماثلة فى مناسبات مختلفة، فكنت لا أحفل بها: بل لا أستكـ
قراءتها، ولعل الذى جعلنى أمسك بهذا الخطاب أنى وجدته مك
بحروف متقاطعة على طريقة كتابة الأحجبة والتمائم، وعلى قا
أقرب إلى قاعدة الخط الكوفى، ولا شك أن الكاتب تعمد هذا إم
فى التخفى، مما جعلنى أرثى لحاله.. وأشفق عليه من الضياع ال
يعيش فيه، وبعد هذا فما رفّ الطرف لذلك التهديد بالقتل ولا ل
الرصاصة فى العين اليسرى، فإن العقيدة التى تحصلت لى
الدراسة، ومما رأيت وسمعت أن الأمر فى هذا مقدور، ولا ـ
لمخلوق فيه، ولقد رأيت فيما رأيت واقعة جرت تحت بصرى وك
شاهدها الوحيد، ذلك أن أسرة فى قرية استأجرت شقيًّا اشـ
بالإجرام والمهارة فى القتل ليقتل خصمًا لها من أسرة أخر
وقدرت له أجرًا كبيرًا على هذا.. وأحضرت له بندقية من النـ
السريع الطلقات، وخرج المجرم القاتل يترصد لخصمه بين المزار
ثم واجهه على الطريق وكان الوقت ظهرًا، فأطلق عليه البند
وهو على بعد مترين منه ولكن الرصاصة لم تخرج فارتبك الر
وسقطت البندقية من يده، فأسرع الرجل الآخر وتناولها وهوى
على رأسه فهشمها وسقط المجرم قتيلاً، وهكذا جرى القدر بما
مقدور، وصار القاتل مقتولاً والمقتول قاتلاً، وصادف أن كنت
حقل لنا قريب مما جرى، وكنت شاهد الواقعة الوحيد أ

لقضاء، ونفذ قضاء الله، وخاب تدبير المدبرين.

وأنا نفسى واجهت الموت أكثر من مرة، وكان اليقين أنه فترسى لا محالة، وفى مرة دهمتنى مصفحة ثقيلة للجيش، وكنا أربعة ى سيارة، أما الثلاثة فقد انتقلوا إلى رضوان الله، وأما أنا فقد ملونى كومة اختلط فيها اللحم بالعظم. رأس مشجوج وصدر ضغوط والضلوع قد تهيضت، والسيقان والأذرع تحطمت، وقلب نبض فى ضربات عنيفة، والدم يسيل من فمى، ثم وضعونى على سرير فى مستشفى، وجلس وكيل النيابة ليأخذ أقوالى على العادة لمألوفة فى ذلك، فاختلى به طبيب المستشفى وقال له: إن حالته لا تسمح بأخذ أقواله، قال: إذن أحضر فى الصباح، فرد الطبيب فى نجة آسفة حزينة لا أعتقد أنه سيبقى حتى الصباح، ثم استدار لطبيب إلى ناحيتى فرآنى أنظر إليه بعينين مفتوحتين، فأدرك أنى سمعت كل ما قيل، فأقبل علىّ يهدئ من روعى ويقول: لا عليك ما سمعت، أنت بخير وإنما أردت أن أصرف عنك وكيل النيابة لا يضايقك بأسئلته، قلت له: هون عليك، فأنا لا أفزع من الموت أتينى لساعته، وسواء امتدت بنا الحياة أيامًا أو أعوامًا. فقال: ثق نه مادام هذا إيمانك، فأنت معافى بإذن الله على الرغم من كل هذه لآلام.

وأذكر فى هذا، الشاب العربى البطل فاتح السند أبو محمد لثقفى، فإنه بعد أن فتح السند ووطد كلمة الإسلام فيها، وشى به

فى فرية باطلة إلى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك فطلبه الخليفة ليقتله، فقيل له لو تشفعت للخليفة لعفا عنك، وأبقى على حياتك، فقال: .. والله لا أفعلها ولا أتدنى بنفسى إلى هذه الذلة، لقد أديت واجبى على خير ما يكون.. والحياة بعد أداء الواجب فضول.

أذكر هذا وأذكر الإمام العز بن عبد السلام إذ جاء إلى القاهرة من دمشق غاضبًا على حكامها فى سبيل الله، فولاه السلطان منصبه ونظر إلى أمراء المماليك الذين يحكمون البلاد فرأى أمرهم عجبًا، إنهم يحكمون الناس وهم أرقاء لأنهم اشتروا بأموال من بيت مال المسلمين، وبهذا يكون حكم الرق مسحوبًا عليهم، فلابد من بيعهم وعتقهم ورد ثمنهم إلى بيت المال وأعلن الشيخ هذا وصمم عليه، وهاج الأمراء وماجوا لحكم الشيخ عليهم، وأصر كبيرهم على قتله، ثم استل سيفه وامتطى فرسه وتوجه إلى دار الشيخ ليقتله، فلما قرع الباب خرج له ولد الشيخ، فقال له فى صلف وعجرفة: أين والدك لأقتله، وجرى الولد مرتدًا إلى داخل البيت ليخبر والده بما رأى وسمع لعله يتوارى أو يهرب، ولكن الشيخ نهض وهو يقول: إن والدك يا ولدى أهون من أن يقتل شهيدًا فى سبيل الله، ثم اندفع إلى الخارج فرأى الأمير شاهرًا سيفه، فصرخ ماذا تريد وماذا تنكر علينا من حكم الإسلام، وأذعن الأمير وتطامن وهوى على يد الشيخ يقبلها وأخذ يترضاه ويقول له: لك الرأى يا مولانا، ولك

فينا ما تريد، فاحكم بما تشاء وعرض الشيخ الأمراء للبيع وشهد بعتقهم بعد أن قبض ثمنهم ودفع به إلى بيت المال.

الموت لا يفزعنى، والموت والتهديد بالقتل لا يحرك منى خاطرًا، وإنما الذى يفزعنى، هو هذا الضياع الذى يلتهم الشباب، فدعنى أقول لك يابنى إذا كنت شابًّا مسلمًا، فإن التهديد بالقتل ليس طريق الإسلام، ولا مما يقره الإسلام، ولو كنت فى شىء من الإسلام أو العلم به أو الفقه لدعوته، لحضرت أو كتبت إلىّ تجادلنى فى الرأى وتناقشنى فى خومينى ودعوته، والمهدى المنتظر وسنيّته أو شيعته، وربما أقنعتك أو أقنعتنى، ولابد أن تفيد من هذا علمًا وخيرًا، بدلاً من ذلك الجهل الذى ليس وراءه إلا الضلال والضياع.

هيكل سليمان

تلقيت من الباحث المحقق الأستاذ منصور جاب الله، نبذ تاريخية عن هيكل سليمان يقول فيها:

كنت أطالع كتابًا لعالم إنجليزى، فلفت نظرى قوله، أن بنى إسرائيل فى تاريخهم القديم لم يخلفوا تراثًا حضاريًا ولا مدنية زاهرة.. وإنما كان مجتمعهم مجتمعًا قبليًا أومشيخة دينية قائمة على الأساطير.. ومن بين هذه الأساطير أسطورة هيكل سليمان الوارد فى سفر الملوك الأول، وسفر أخبار الناس الثانى من التوراة. وتذهب هذه الأسطورة إلى أن أول من فكر فى بناء الهيكل فى أورشليم هو الملك داود.. ولكن الله أوحى إليه أن يدفع بناءه لابنه سليمان، لينسب إليه ويسمى هيكل سليمان.. ويضم تابوت العهد

قدس الأقداس وفيه الألواح التى أنزلت على موسى.

وروايات المؤرخين عن هذا الهيكل الأسطورى، تذهب إلى أن ليمان أراد أن يعوض بنى إسرائيل عن الحرمان الطويل الذى ابدوه فى صحراء التيه.. على عهد موسى بعد طردهم من مصر.. بنى الهيكل على جبل موريا من جبال أورشليم، وقدر ما استعمل فى ائه من الذهب والفضة بألف مليون جنيه حسب سعر النقد لحالى.. وجاء سليمان بخشب الهيكل من أرز لبنان إذ فاوض يرام ملك صور فأرسل الملك حيرام الخشب وأدى سليمان ثمنه هبًا.. واستخدم فى بنائه ١٤٥ ألف عامل وتم البناء فى سبع سنين.

هذا هو موجز القصة الأسطورية لهيكل سليمان الذى يجمع لؤرخون على أنه تهدم تمامًا عندما استولى بختنصر ملك الكلدان لى أورشليم عام ٥٨٦ ق.م وأحرقت التوراة ولم يبق لها أثر ونُفى نو إسرائيل إلى بابل حيث عاشوا فى الأسر خمسين عامًا.. فلما ادوا إلى أورشليم بعد استيلاء الفرس عليها، قال الكاهن عزرا نه عثر على نسخة التوراة المفقودة وفى رأى بعض المؤرخين أنه ضعها وضعًا.. وشرع فى بناء هيكل جديد عام ٤٤٤ ق.م وهذا هيكل هدمه بدوره الإمبراطور الرومانى تيتوس عام ٧٠ م عندما حرقت أورشليم بسبب ثورة اليهود على حكم الرومان، فلما ثاروا رة أخرى فى عهد الإمبراطور أدريانوس عام ١٣٥ م دمرت ورشليم تدميرًا تامًا وأزيل الهيكل من أساسه.. وحرثت المدينة

حرثًا وأقيم مكان الهيكل معبد وثنى باسم «جوبيتر» رب الأرباب عند الرومان .. ولما اعتنق الرومان المسيحية على عهد الإمبراطور قسطنطين، لم يكن لهيكل سليمان أى أثر .. وفى سنة ٦٣٦ فتح المسلمون فلسطين .. فأصبحت عربية لحمًا ودمًا، أو على الأصح عادت إليها عروبتها، فقد كانت عربية منذ فجر التاريخ.

والإسرائيليون الذين يقيمون دولتهم على أساس أسطورى قد أنشئوا فى القدس الجديدة نموذجًا لهيكل سليمان المزعوم طوله ٣٦ مترًا وعرضه ٢٢ مترًا وارتفاعه ١٨ مترًا ولكنهم مع ذلك يزعمون أن الجدار الغربى للمسجد الأقصى الشريف هو آخر ما بقى من هيكل سليمان القديم ويسمونه حائط المبكى .. وقد عادوا إلى البكاء عنده بعد نكستهم فى اليوم السادس من أكتوبر المجيد .. وسوف يطول بكاؤهم ما بقيت الأساطير تكتب تاريخهم الدموى الرهيب.

وهذا الذى ذكره الأستاذ جاب الله حق .. ولكنه ليس كل الحق .. فإن الدعاية اليهودية قد جعلت من تاريخ سليمان قصة خرافية حافلة بالعجائب والمدهشات .. فهى أشبه بقصص المغامرات السينمائية .. وقصص «صندوق الدنيا» العجيبة، والواقع أن هيكل سليمان الذى بالغت هذه الدعاية وهولت فى تصوير شأنه، لم يكن شيئًا يذكر إلى جانب المعالم الأثرية العظيمة التى خلقها عظماء الملوك .. وما كان هذا الهيكل يبلغ «ركنًا» من الهرم الأكبر أو الهرم الأصغر.

ويقول الكاتب البريطانى «ولز» فى كتابه «معالم تاريخ الإنسانية»، إن المبانى والأنظمة التى كانت لسليمان إذا قيست إلى جمال وعجائب المبانى والأنظمة التى قام بها عاهل عظيم مثل تحوتمس الثالث أورمسيس الثانى أوبعض الفراعين الأخر.. أوسرجون الثانى أوثيوخذ مصر العظيم.. فإنها تبدو من التوافه الهينات.. وما كان «هيكل سليمان» إلا بناء عاديًا لا يزيد على «فيللا» للسكنى العادية.. ولكن الدعاية اليهودية حاولت بكل جهدها وبكل ما رزقت من القدرة على التزوير والتزييف، أن تجعل من هذا الهيكل حديث خرافة وأسطورة الأساطير. وهكذا صنعت بكل تاريخ سليمان وبكل ما زعمته لليهود من تاريخ.. ولكنها مع الأسف استطاعت كما يقول «ولز أن تتسلط بهذه الخرافات على أذهان العالم المسيحى.. بل العالم الإسلامى.

بقى أن نعرف أن المهندسين المصريين هم الذين تولوا بناء هذا «الهيكل السليمانى» وقد أحضرهم سليمان من مصر لهذا الغرض.. كما أحضر لبنائه خشب الأرز من لبنان.. ولم يكن فيه أى أثر فنى لليهود.

تراث من الآلام

متى بنيت القدس ؟.. ومن الذى أنشأها ؟.. ومن أول من سكنها من الناس والأجناس .. ولماذا اسميت بالقدس .. وبيت المقدس ؟.. والمسجد الأقصى من الذى شيد بناءه ؟، وقبة الصخرة من الذى أقامها ؟. وهل الصخرة معلقة فى الفضاء بين الأرض والسماء ؟.

أسئلة كثيرة تلقيتها فى عدد من الرسائل والخطابات .. والباعث عليها .. لاشك تلك الزيارة التاريخية التى قام الرئيس السادات للمدينة التاريخية .. وعادت بى الأيام إلى الوراء لأؤدى امتحانًا فى التاريخ، وهى عودة مقبولة ومحبوبة .. ولكنى مع الأسف لا أجد وقتًا للمذاكرة حتى أؤدى الامتحان كما يجب .. فليكن الجواب على قدر ما تسعف به الذاكرة.

رأحب أن أكون صريحًا مع القراء .. أو مع السائلين على الأقل ..
قلت : لا أنا .. ولا التاريخ نعرف فى أى زمن بالتحديد بنيت
س ومن الذى بناها على التحقيق .. وسبب بنائها فى هذا الموقع
ى أقيمت فيه .. كل ما هناك هو اسم « بيت المقدس » .. ورد
، مرة فى الألواح الخزفية التى اكتشفت فى تل العمارنة ويرجع
نها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد .. فقد سردت هذه
واح أسماء جميع المدن الفلسطينية الخاضعة لحكم البابليين ومنها
المقدس .. أول من عرف من سكان المدينة هم « اليبوسيون » ..
لى سنة ألف قبل الميلاد .. وكانت المدينة على أيامهم تعرف باسم
س » ويجمع المؤرخون على أن سكان القدس القدماء ، جاءوها
الجزيرة العربية فى هجراتهم الكبيرة التى تدافعت إلى خارج
نهم الأصلى لأسباب طبيعية أو اقتصادية .. ثم جاء عهد
راة .. وانتزع النبى دواد المدينة .. ثم وسعها النبى سليمان
ها بالهيكل .. وفى عهد رحبو سلمت المدينة إلى ملك مصر
باق .. وغزاها سنحريب الأشورى على عهد الملك حزقيا .. ثم
ت يديهو باقين إلى نيوخذ نصر ، فخرب الهيكل وسبى اليهود
هم إلى بلاد بابل .. وتتابعت الأحداث على المدينة .. فسقطت فى
يطس الرومانى سنة سبعين بعد الميلاد .. وأخذها الفرس فترة
: إليها الرومان .. ثم فتحها العرب أو على التحقيق استعادوها
عهد الإسلام .. وهكذا عاشت المدينة تتعاقب عليها الدول

وتتداولها الأمم .. فتحها الغزاة زهاء أربعين مرة .. انتشرت فيه الملل والنحل .. فظهرت فيها الوثنية واليهودية والديانة المسي وقدسها الإسلام .. وجاءت جحافل أوروبا الصليبية واحتل وأقامت فيها مملكة ثم استردها البطل صلاح الدين .

بنيت المدينة القديمة فى أول عهدها فوق جبلين .. الأول صهيون .. والثانى جبل مويا .. وهى كلمة عبرية معناها « مر يقصدون بذلك أنها موضع الرؤية .. أى رؤية الأنبياء لله تع وكان اسم المدينة فى أول عهدها كما قلنا « يبوس » .. ثم س « أورى شلم » أو « أورشليم » .. أى بيت المقدس .. ومعناه ا الذى يتطهر به من الذنوب .. وسميت باسم « إيليا » ومعناه الله .. والاسم الذائع فى هذه الأيام القدس ..

أما الذى بنى قبة الصخرة والمسجد الأقصى .. فقد المؤرخون الإسلاميون على أنه الخليفة الأموى عبد الملك مروان .. ولم يشذ فى هذا الرأى إلا ابن الطقطقى .. فقد قال الوليد بن عبد الملك .. وقد بنى المسجد فوق قمة جبل ، أو جبل الرؤية .. وبنيت القبة فوق الصخرة وهى كتلة ص صلدة برزت من قمة الجبل .. ولها أصل نابت بأرضيته .. وجميع الأديان الكتابية يعظمونها للأسباب الآتية :

* عليها خاطب يعقوب ربه ولهذا سماها باب السماء
* فوقها رأى النبى داود الملاك يحصد بنى إسرائيل فى

ء فاشتراها لإقامة الهيكل عليها وصار يعبد الله فوقها.
* عليها كانت محارب الهيكل الذى أقامة سليمان.
* تحتها قبر سليمان فيما يقال.
* عليها كان الأنبياء يقيمون الصلاة.
* فوقها كان المحراب الذى تتعبد فيه السيدة مريم البتول، ك كان يوافيها النبى زكريا.
* إليها كان إسراء النبى محمد صلوات الله عليه.. ومنها كان جه إلى السماء.
* كانت القبلة الأولى للمسلمين حتى السنة الثانية من الهجرة.
وليس بصحيح ما قيل من أن الصخرة معلقة فى الفضاء بين اء والأرض.. فقد زرتها ورأيتها ثابتة فى أصل الجبل بتكوينها يعى..

ولعل فى هذا ما يكفى فى الإجابة على أسئلة السائلين.. سقته الإمكان.. وفى هذا المقام الضيق عن مدينة تبلغ المؤلفات التى ت عنها بمختلف اللغات المئات..

وبعد.. لقد عاشت القدس مدينة القداسة والأديان.. ومدينة وال والآلام لم تشهد مدينة فى الدنيا كلها.. وعلى امتداد التاريخ ما شهدت من حروب ومعارك وضحايا ودماء.. وفظائع وشنائع.. اب ودمار.. فهل آن لمدينة الأديان وقبلة أهل الأديان أن تعيش سلام.. وأن تكون مدينة السلام.....

يجب تطهير تراثنا الثقافى من إسرائيليات التلمود

المؤامرة الإسرائيلية على الإسلام والعرب ليست ربيبة ه العصر، ولكنها مؤامرة قديمة طويلة امتدت على طول التار الإسلامى، وهى تلبس لكل حال لبوسها، وتتخذ لكل مو ما يلائمه من التنظيم والتخطيط، قصدًا إلى إفساد العقيدة، وإمه فى تفريق الكلمة، وإصراراً على قتل القوة الإسلامية التى تست صلابتها من تعاليم الإسلام، بالتنويم الخرافى والإذاعان السلبى

ومما يؤسف أن هذه المؤامرة بما اصطنعت من الأسال الشيطانية استطاعت أن تتغلغل فى المجتمع الإسلامى، وأن تخ أصحاب العقول الواهية من السذج وأشباه المتعلمين، وكان ما كان من الأخطار والأضرار فى حياة المسلمين، ومازلنا نع

طارها وأضرارها إلى اليوم.

نجحت هذه المؤامرة الإسرائيلية مع ظهور الدعوة الإسلامية، دما جهر النبى صلى الله علية وسلم بدعوة الإسلام، أقبل عليها د يثرب وكأنها دعوة من أجلهم ولصالحهم، وكان هدفهم غلالها تجاريًا، فلما أحبط النبى مآربهم وأظهر لهم أن الإسلام ى دين استغلال، وإنما جاء لتحرير الإنسان من استغلال نسان، انقلبوا على النبى وعلى الدعوة فأخذوا يدبرون المؤامرات له، ويؤلبون القبائل لقتاله، وبذلوا كل ما لديهم من كيد وخبث بقاع به، ولكن الله سبحانه وتعالى ردّ كيدهم، وأفسد مكرهم، فظ نبيه وأظهر دينه على الدين كله.

وجاء نصر الله والفتح، وانتشرت دعوة الإسلام فى الآفاق، لأت العقيدة الإسلامية النفوس والقلوب بقوة الحق واليقين، ت الإسرائيلية أنه لا قبل لها بمواجهة هذا التيار القوى الجارف صطنعت أسلوبًا آخر، هو الأسلوب الذى يصطنعه الإسرائيليون اليوم فى خدمة مآربهم، والوصول إلى أهدافهم، ذلك أنهم أقبلوا ى الدخول فى الإسلام، وإعلان إسلامهم فى حماسة وتعصب هر، وتحت هذا الشعار ينفثون سمومهم ضد الإسلام باسم سلام، ويعملون على تقويض العقيدة الإسلامية بتهاويل رافات يلبسونها لباس الإسلام، ويعمدون إلى تفريق كلمة سلمين، وتبديد وحدتهم، بإذكاء النعرات القبلية، وباسم الحرص

على مصالح الطوائف التى دعا الإسلام إلى رعاية مصالحه
والاهتمام بأمرها.

بدت هذه المؤامرة المستترة على عهد الخلفاء الراشدين، وتو
أكبر الأمر فيها ثلاثة أصلهم من يهود اليمن، دخلوا الإسلام ظاه
لهذا الغرض وهم عبد الله بن سبأ، وكعب الأحبار، ودهب
منيه، فقد عمل هؤلاء الثلاثة جاهدين على إفساد العقيدة بن
خرافات التلمود وإلباسها لباس الحديث النبوى والأخ
الإسلامية، وقد فطن الخليفة عمر بن الخطاب إلى هذه المؤام
وما وراءها من شر، فكان يضرب كعب الأحبار بسوطه عندما ير
يحدث الناس بخرافات التلمود ويقول له: دعنا من يهوديتك، ورأ
كعب شدة عمر عليه، فانتقل إلى دمشق وعاش قريبًا من معاو
وهو وال على الشام، وفى هذا المجال أخذ ينفث كل ما عنده
الإسرائيليات فى المجتمع.

أما عبد الله بن سبأ، فكان شخصية شيطانية يحوط
الغموض، وقد انطلق هذا الرجل فى الآفاق يثير الطوائف فى البلا
المفتوحة ضد الحكم الإسلامى، وكان ذلك من أسباب الفتنة ال
أحاطت بالخليفة الثالث عثمان بن عفان، ولما شجر الخلاف
على ومعاوية مشى فى هذا الخلاف بالفتنة قصدًا إلى تفريق كل
المسلمين، فأخذ يذيع الأحاديث والأخبار فى تمجيد عِلىّ وتقديه
حتى زعم الناس أن جزءًا إلهيًا تجسد فى عَلىّ وفى ذريته من بع

ان عِلىّ ينكر عليه هذا وينهاه عنه، ولما قتل عِلىّ زعم الرجل
اس أن ابن ملجم لم يقتل عليًّا وإنما قتل الشيطان، وأن عليًّا
ىء فى السحاب، فالرعد صوته، والبرق ضحكه إلى آخر هذا
راء الذى يقدمه إلى الناس فى صورة أحاديث نبوية، أو أخبار فى
كتب القديمة، وأخيرًا كشف هذا الداعية الإسرائيلى عن غرضه،
زعم للناس أن الدين يتحصل بطاعة الإمام من آل البيت، وأن
ه الطاعة تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام، وكان هذا هو
دف الأصيل لتلك المؤامرة الإسرائيلية.

من أجل هذا الهدف عاش أولئك الإسرائيليون فى المجتمع
سلامى يدسون على الناس إسرائيليات التلمود والمشناة،
يزجونها إليهم مدعمة بالأحاديث الموصولة، والآثار المزعومة،
لروايات المخترعة، وما يزعمونه من علم الغيب والباطن،
شاعوا بين الناس القول بالرجعية، ونقلوا إليهم عقيدة
إسرائيليين فى ظهور المخلّص باسم ظهور الإمام العادل والمهدى
نتظر. وفى الحق أن أسطورة المهدى المنتظر قد استهوت كثيرًا من
عامة والسذج حتى خشى الأمويون على أنفسهم من مغبتها،
قاموا بدعوة مضادة يزعمون فيها أن الذى سيظهر إنما هو
سفيانى المنتظر، وخشى القحطانيون أن يفلت الأمر منهم فزعموا
ه (القحطانى المنتظر)، وزاد الطين بلة أن انطلقت قبيلة بنى كلب
قول أنه سيكون (الكلبى المنتظر)، وعلى الرغم من أن رجال

الشريعة وعلماء الإسلام قد تصدوا لهذه الخرافات وبذلوا الج
الجهيد لتطهير الحديث الشريف، وتعاليم الإسلام من هذه الترها
الإسرائيلية فإن بعض الفرق استغلت هذه الخرافات فى الوصو
إلى أغراضها السياسية. حتى كانت أسطورة المهدى المنتظر سبباً
كثير من الخلافات والحروب بين المسلمين.

نقول هذا ومما يؤسف له أن هذه الإسرائيليات مازالت تح
مكانها فى بعض كتب التفاسير والسير والأخبار، ومازالت تندس
إلى أفكار كثير من الناس وتسيطر على نفوسهم، فهل تجد وقف
صادقة من رجال الأزهر وعلماء الدين، وكل من يعنيهم الأمر لقط
هذا الداء والقضاء على هذا الوباء.

* * *

سبحة من عند النبى

هى للمتعبد المتهجد شارة وشعار ، وللمنافق المرائى مرارة ستار ، والجاهل المتوهم وقاء وتميمة ، وتوجيه المتأنق حلية وزينة

لا تمت بسبب إلى أى دين ، ولكنها موضع التقديس سواء فى لك أهل موسى ، وأتباع عيسى ، وأصحاب محمد عليه السلام ، سواء فى ذلك الآخذون بدين السماء ، والعاكفون على الأصنام والأوثان .

ومن عجيب أمرها أنها رفيقة الجميع على مختلف الأعمار والأسنان فبينما تراها مطوقة فى عنق الشيخ الواهن ، إذ بك تراها فى يد الشاب الفاتن ، ولا مانع من أن تدخل مع المرأة خلوتها ، وأن تمشى مع الجماعة فى جلوتها لا تؤثر فى ذلك أهل وطن على

وطن ، ولا أبناء جنس على جنس ، فهى شائعة ذائعة فى ج
الأوطان ، وهى حبيبة لجميع بنى الإنسان ، سواء فى ذلك أبيض
وأسودهم ، وأحمرهم ، وأصفرهم ،

عاصرت التاريخ منذ فجر شبابه ، لكنها مجهولة الأص
والنسب ، وهناك من المؤرخين من يزعم أنه رآها منذ عصر بعيد
هضبة التبت بالهند ، إذ عثر المنقبون فى تلك الجهات على خيوط
حبات من خشب الصندل أو الصدف او الجوهر ، ومن هنا س
الاعتقاد بأن عبدة بوذا هم أول من استعمل السبحة واستعان
على العبادة ، وعنهم ذاعت وشاعت فى جميع أنحاء العالم ب
المتعبدين وغير المتعبدين ولكن البحث الحديث أثبت أن قدم
المصريين هم أول من استعمل السبحة ، وأن الرهبان الأقباط
العصر الأول من المسيحية قد استخدموها أداة تعبد ، واستعانة
صلواتهم وتسابيحهم ، وعنهم ذاعت فى العالم بين الأمم المسيحية
وبين الأمم الإسلامية ، ثم صارت تراثاً مشاعاً بين جميع الأمم ،وبها
تكون المسبحة فى تاريخها القديم بنت النيل العريق .

والمسبحة دخيلة على الأذهان لا شك فى ذلك فلم يرد لها ذكر
الأنجيل ولا التوراة ولا القرآن ، وليس هناك ما يدل على أن
كانت معروفة فى عهد المسيح ولم يرد لها ذكر فى الأناجيل على لسان
أو لسان أحد من حواريه ، وفى نحو القرن السادس عشر قا
جدال عنيف عنيف بين الطوائف المسيحية عن استعمال السبح

صلها فى العبادة ، وقد ذاعت رواية تقول إن مريم قد ظهرت
لرس الناسك فى الرؤيا وأمرته أن يذيع استعمال المسبحة بين
سحيين ، ومن هنا كانت مشروعية السبحة فى المسيحية ، ولكن
ستشرق الألمانى « هيرزج » يثبت أن نصارى الأقباط فى عصرهم
ل من صنعوا المسبحة وعرفوها فى القرن الأول للميلاد وعنهم
عت بين المسيحيين .

وأول صلاة تقررت تلاوتها فى المسيحية عدد حبات المسبحة إلى
ئة مرة – هى الصلاة المعروفة بالصلاة الربانية التى مطلعها أبانا
ذى فى السموات ليتقدس اسمه ثم أضيفت إليها فى القرن الحادى
شر للميلاد الصلاة المعروفة بتَسبيحة العذراء ، وهى التى تضمنها
قسم الأول من أنجيل لوقا ، ثم أضيفت إلى هذه التسبيحة فى
قرن الثالث عشر الصلاة المعروفة بتحية اليصابات العذراء والتى
طلعها « ماركة هى ثمرة بطنك » ، وأخيرًا أضيفت إليها تحية ..
لائكة التى مبدؤها « السلام لك يامريم أيتها المنعم عليها . ويدل
بحث التاريخى الذى قام به المستشرقون فى بلاد أوربا على أن
سبحة انتشرت بين المسيحيين انتشارًا كبيرًا وخاصة بعد أن أصبح
ن المتعين استخدامها فى العبادة وتلاوة الصلوات فقد عثر الباحثون
لى منشور كنسى يرجع تاريخه إلى عام ١٢٠٨ للميلاد موجه من
لطران أوردو الباريسى إلى أتباعه يحثهم فيه على تلاوة الصلاة
لربانية على المسبحة .

وفى عام ١٥٧١ أذاع مجمع « بيزانسون » على المسيحيين إح
الصلوات لتلاوتها عدد حبات السبحة ، وهى الصلاة التى ذاعت
المسيحيين فى كل مكان ، والتى مطلعها يامريم المقدسة يا أم الإ
اشفعى فينا نحن الخطاة ، الآن وفى ساعة موتنا » .

وحديث السبحة فى الإسلام ، هو حديث السبحة فى المسيح
فلم يرد لها أى ذكر فى القرآن - كما قلنا - ولكنها على الرغم
ذلك انتشرت بين المسلمين ، وصارت عندهم موضع الإك
والتقديس ، حتى حسب البعض بعض الواهمين أنها أصل من أص
الإسلام ، ولم تؤثر عن النبى صلوات الله عليه ، أو عن الصح
أنهم استخدموا السبحة فى صلاة أو عبادة .. وقد ألف جلال الد
السيوطى رسالة سماها « المنحة استعمال السبحة » فاستنب
للسبحة أصلا فى السنة وذكر أن جمعًا من الصحابة منهم عائ
وأبو هريرة وأبو الدرداء كانت لهم السبحة ، كما كانت لجمع م
الأولياء منهم الجنيد والجيلانى ومعروف الكرخى .

وهناك بعض الآثار الواردة عن استعمال زوجات النبى للسب
فى الاستخارة ، واستعمال بعض الصحابة فى العبادة والصلاة
ولكنها آثار غير موثوق بها ، إنما كانوا يعقدون ذلك على الأنامل
أو يستخدمون قطع الحجارة الصغيرة ، وقد ورد أن عبد الله ب
عمر نهى المصلين إذ رآهم ذات يوم يستعملون الحجارة الصغيرة لله

فى صلواتهم ، ويرى المستشرق الألمانى « جولد هير » أن السبحة لم تنتشر بين سكان الجزيرة العربية إلا فى القرن الثالث الهجرى ، ويرجح أن تكون دخلت إليها من مصر حيث كانت ذائعة وقتذاك بين الرهبان وغير الرهبان .

ويروى أن أحد الشعراء قصد إلى مدح الخليفة المأمون فوصفه بالإغضاء عن الدنيا والعكوف على العبادة ، قال له المأمون : ما زدت على أن جعلتنى عجوزًا ومعها سبحتها ، هل قلت كما قال جرير :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فإذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن السبحة فى ذلك العهد كانت ذائعة فى بغداد وبين أهل الشيخوخة من المسلمين حتى النساء

على أن السبحة كانت قد انتشرت قبل ذلك فى العالم الإسلامى بين طوائف المتصوفة ، وكانوا يستعملونها للاستعانة فى أذكارهم وتسبيحهم ، ويروى أنهم عثروا فى أمتعة شيخ الطريق ابن القاسم الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ للهجرة على سبحة ، فلما أرادوا أخذها قال : كيف أعطيها لكم وهى تقربنى كل يوم خطوة من الله .

ويرى الصوفية أن السبحة إعانة للتعبد ، ويقولون إنها سمة من

سمات أهل الخير ، ويجتمعون لاستخدامها بأن أهل الأوراد الكثير والأذكار المتصلة لا يمكنهم العد بالأصابع خشية الغلط ، واستيلا الشاغل بالأصابع عليهم ، فكان لابد لهم من السبحة .

وقد صارت السبحة من الأصول المرغبة عند الصوفية في طرائفهم وعوائدهم ، فكانوا يستعملونها في حلقات الذكر ، وكانو يحفظونها في صندوق خاص بها ، وكان لها قوم قوامون عليه يستخدمونها في الأوراد والأذكار ، ويعرفون بشيوخ السبحة . ولكل شيخ خادم يعرف بخادم السبحة ، وكان يقدر لهم منهم مرتب ثابت على ذلك .

ويتحدث الشيخ الشعراني عن السبحة في كتابه (المنن فيقول : ولقد وقعت رجلي مرة على السبحة ولقد وقعت رجلي على السبحة ، فكدت أهلك من ذلك إكرامًا لها ، وهذا مما يدل على المكانة التي بلغتها السبحة من التقديس بين الصوفية .

وبعض طوائف الصوفية تجعل من تقاليد السبحة وضعها في العنق بعد الذكر ، لأن هذا عندهم أحفظ لها وأصون من الضياع والامتهان ، ثم إن وضع السبحة في العنق يجعلها دائمًا تحت مرأى النظر ، فتذكر الإنسان دائمًا بالعبادة وخشية الله ، ومن ثم كان ذلك أدعى إلى تخفيض صفوة النفس وقمعها عن التخلق بالأخلاق الظلمانية كما يقولون ، ثم هم يقيسون ذلك على السيف ، فكما أن السيف هو أداة الجهاد في الحرب بوضعه بعد المعركة في قرابه .

ذلك السبحة وهى أداة الجهاد فى العبادة لابد من وضعها بعد الذكر
، العنق .

وهذا التقليد واجب عند الطائفة الدرقوية الشاذلية ، إذ يروى
من الشيخ « الدرقوى » أن الله أطلعه على بعض الملائكة الكرام ،
هم بين أيدى الملك العلام هائمين بذكره وما شهد ومشاهدته على
لدوام ، ومسابحهم فى أعناقهم منتظمة أى نظام ، وعلى هذا ألزم
تباعه بوضع السبحة فى أعناقهم .

وينكر بعض طوائف الصوفية هذا التقليد ، ويقولون إنه يورث
لفقر ، لأن ذلك مما يجر إلى الرياء والتظاهر ، ويرد الآخرون بأن
شواهد الفروق والحال تناقض ذلك ، ويقولون إن التجربة والواقع
شهدان بخلافه ، وإن هناك كثيرين قد درجوا على وضع السبحة فى
عناقهم فلم يزدهم هذا إلا تواضعاً وتطامناً فى حب الله بين
لناس .

أما علماء الشريعة فينكرون هذا كله ، وقد عقد أبو عبد الله
محمد الإبيارى المعروف بابن الحاج ، والمتوفى سنة ٧٣٧ للهجرة ، فى
كتابه « المدخل » أنكر فيه كل هذه التقاليد التى تأخذ بها الصوفية
ى تقديس السبحة واستخدامها .. وندد بالأوضاع التى أقاموها مع
نشاء صندوق لها ، وتعيين شيخ باسمها ، ويقولون إن هذا بدعة
لا أصل لها فى الدين ، ويرد الصوفية على حكم ابن الحاج فيقولون
نه فقه غير مسلم ، وإن دلائل علم الحقيقة غير دلائل علم

الشريعة، فهذه من التصوف والإيثار، وتلك من شواهد الحا
والذوق.

على أن استخدام السبحة لم يقف عند حد الاستعانة بها فى الذك
والصلاة، بل إنها لم تلبث أن صارت أداة تتعلق بكثير من الأوه
والمعتقدات عند الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية.. ويبدو أ
قداستها بين طوائف الصوفية وكهان المسيحية وفقراء اليوجا، ة
أكسبها هذا الاعتقاد بين الناس.. إذ كان الدين مصدر كل شىء.
حياة الشعوب، فكثيرون من المسلمين يستخدمونها فى الاستخارة
ويستدلون بذلك بأثر غير ثابت، إذ يزعمون أن النبى صلوات ا
عليه، أعلم زوجاته الاستخارة على السبحة، وعلى هذا فه
يستشيرونها فى أدبه الغائب، وسفر المسافر، والإقدام على أ
عمل، حتى فى المرض والشفاء، وما يرجى للمريض من حيا
أو يتوقع له من موت.

والفقهاء فى الأرياف يستخدمونها فى قراءة ما يسمو
« بالعتاقة » إذ يتلون على السبحة سورة الإخلاص آلاف المرات
كفارة للمتوفى وغفرانًا لذنوبه، ومثل هذا معروف فى بلاد الهند، فه
يعتقدون أن الروح تعود بعد خروجها إلى الجثة منتظرة الحساب
فيجتمع فى هذه الليلة خمسون شيخًا، وفى يد أحدهم سبحة كبير
مكونة من ألف حبة ثم يأخذون فى تلاوة دعواتهم للميت، وبعد أ
يعدوا كل ألف يستريحون لشرب القهوة.. ولا يزالون طوال الليل

لى هذه الحال، وفى النهاية يهبون كل ما تلوه من الأدعية لروح يت .

وللمصريين عقائد كثيرة فى السبحة المصنوعة من خشب اليسر، يبدو أن اسم اليسر، هو الذى أوحى إليهم بهذه الاعتقادات، فهم لا يعتقدون أن من يحمل سبحة من هذا الخشب، يسر الله له واب الرزق، وإذا وضعها مريض باحتباس البول شفى من هذه انة، وبعض الناس يضعونها فى الندى والطل فى ليلة مقمرة، ثم سلونها فى الصباح ببعض الماء ويسقونها للأطفال على سبيل تداوى من الأمراض.

وينتشر بين كثير من الشعوب استخدام السبحة فى الوقاية من شرور والأخطار، والصيانة من الحسد ونظرةالعين على صورة تلفة يطول شرحها وتتبعها، كما يتعذر على الباحث ردها إلى صولها فى كثير من الأحيان.

ويقول الباحثون إن عدد حبات السبحة فى تاريخها الأول مائة ثمانية حبات، ولا أدرى لماذا كان هذا العدد بالذات، ولعل شيئا ن ذلك يرجع إلى الاعتقادات القديمة فى العدد، وعددها الذائع بين وائف المسلمين تسع وتسعون حبة، ويرجع ذلك إلى الحديث الوارد تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثة وثلاثين فهم سبحون ثلاثة وثلاثين، ويحمدون ثلاثة وثلاثين، ويكبرون ثلاثة ثلاثين..

فيكون المجموع تسعًا وتسعين حبة من باب التمكين، وإتمام لعقد العدد، قد اقتضاهم هذا تقسيم السبحة إلى ثلاثة أثلاث، وفي هذا العصر الحديث حين قل تسبيح الناس ودعواتهم، صنعوا تلك الأثلاث الذائعة، وقد تفنن الصانعون فيها تأنقًا وتلوينا وشكلا وتنظيماً، وهكذا تطورت السبحة مع الزمن، فتأنقت وتلونت واكتسبت كثيرًا من صفات العصر الذى نعيش فيه، ولم تعد أداة عبادة واستخارة فحسب، بل أصبحت كذلك وجاهة ومظهر رياء ونفاق، وليست هى والله طبيعة السبحة، ولكنها طبيعة الزمن وطبيعة هؤلاء الناس. ولا بأس من أن نختم هذا البحث قول أحد الشعراء يصف سبحته:

وسبحة أناملى
قد شغفت بحبها
مثل مناقير غدت
ملتقطات حبها

وقال أحد الشعراء فيها لغزًا:

ومنظومة الشكل يخلو بها البـ
ـب فالتجمع فى همته
إذا ذكر الله جل اسمه
عليها تطرق من هيبته

تمثال الحرية
الذى صنع مصر

الفتاة السمراء الفارعة القوام الدقيقة الملامح .. التى تقف فوق
ثال الحرية القائم على مدخل ميناء نيويورك رافعة شعلة النور
لعالم .. ليست من بنات أمريكا ولا تمت إليها بنسب .. ولكنها فلاحة
ن بنات مصر .. تمثل روح النيل وسماحته .. وكان من المقرر أن
كون مكانها فوق أرضه عنوانًا لنهضة مصر .. وشعارًا ليقظتها ، غير
ن أحداث السياسة قضت عليها أن تعيش غريبة عن وطنها .. وأن
عيش بين أولئك الخليط العالمى الذين نسميهم بالأمريكان .

فهذا التمثال الضخم الذى يعرفه العالم باسم تمثال الحرية ..
تتخذه أمريكا عنوانًا لها ، وشعارًا بين الأمم .. لم يكن تمثالاً
أمريكا .. ولا من المقرر أن يقام على أرضها .. ولذلك قصة تاريخية

وقعت عليها فيما لدى من مجموعات صحفية قديمة العهد .. فرأيت من الوفاء للحق والتاريخ أن تعلن للناس .

والقصة ترجع إلى عهد الخديو إسماعيل .. وحفر قناة السويس .. فقد أوقف إسماعيل العمل فى حفر القناة .. ثم عاد فوافق على استئناف العمل بسعى من فرنسا .. ومضت عشر سنوات بذلت فيها مصر ما بذلت من العرق والدماء والأرواح حتى تم حفر القناة .. واحتفل إسماعيل بافتتاحها احتفالاً تاريخيًّا رائعًا ، دعا إليه ملوك أوربا وأمراءها .. وبذل فيه من ألوان البهجة ما يزرى بليالى ألف ليلة وليلة .. وكانت أوجينى إمبراطورة فرنسا فى مقدمة ضيوف الاحتفال .. وكانت موضع اهتمام كبير من الخديو إسماعيل طوال أيام الاحتفال .. فلما انتهت الاحتفالات عادت أوجينى إلى وطنها ونفسها نشوى بهدايا إسماعيل وكرم ضيافته .. وبما أحرزت من النجاح فى توطيد الصداقة بين مصر وفرنسا .. وأرادت من جانبها أن تبادل الخديو إسماعيل المودة والمجاملة .. فعهدت إلى المثال الفرنسى الكبير « بارتولدى » صانع أسد بلفورت أن يصنع تمثالاً فخمًا يقام على قناة السويس .. فى الحد الفاصل بين أفريقيا وآسيا تمجيدًا لذكرى افتتاح القناة .. وشعارًا لنهضة مصر ويقظتها ..

وعكف المثال الكبير على صنع التمثال ، واختار له وجه فلاحة مصرية تحمل بيدها شعلة من النور وتبسطها نحو آسيا ، وكتب على قاعدته « مصر تبعث النور إلى آسيا » .

ولكن تدبير الأحداث كثيرًا ما يكون أسرع من تدبير الناس وتقديرهم .. فعندما رفع المثال الفرنسى الكبير قامته إيذانًا بانتهاء العمل فى التمثال الضخم .. كانت الدنيا قد تغيرت .. والأحوال قد تبدلت .. وأصبح الناس غير الناس .. لقد سقطت الإمبراطورة أوجينى وفارقت وطنها راحلة .. وترك إسماعيل الحكم بعد أن سطع مجده فى الآفاق .. ومات « دليسبس » الذى حصل على الامتياز بحفر القناة محكومًا عليه بالسقوط والإخفاق .. ووقف المثال الفرنسى العظيم حائرًا لا يدرى ماذا يصنع بذلك التمثال الذى بذل فيه كل ما يملك من البراعة الفنية .. ليكون عنوان مجده الخالد على أرض النيل .. أرض الفن والتماثيل والآثار.

وفى ذلك الوقت وضعت حرب التحرير الأمريكية أوزارها .. وخرج الأمريكيون منها ظافرين بحريتهم واستقلالهم .. فاشترت الرابطة الفرنسية الأمريكية التمثال .. وأهدته الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٨٤ ليكون رمزًا لانتصارها وحريتها ، بعد أن أدخل عليه المثال بعض التعديلات ليكون رمزًا للحرية .. ولكنه لم يستطع أن يغير وجه التمثال .. فبقى وجه فلاحة مصرية نشأت فى بلاد الأهرام .. وتربت على ضفاف النيل ..

هذه هى القصة التاريخية للتمثال .. فهل عند إخواننا المحققين فى هذا ما يمكن أن يقال ؟..

يمينيون .. ويساريون ..

من التعابير السائدة فى هذه الأيام قولهم يمينى ويسارى .. وهم يريدون باليمينى الرجل يميل إلى المحافظة والاعتدال فى رأيه .. وباليسارى المتطرف فى سياسته والمغالى فى معارضته.

والقرآن الكريم أول من قسم الناس فى مراتبهم إلى طائفتين .. أصحاب اليمين، وهم أهل الاستقامة الأخيار الذين ينالون جزاء الحسنى فى جنات النعيم .. وأصحاب الشمال، وهم أهل المشأمة الأشرار الذين ينالون جزاءهم فى نار الجحيم ..

والشمالى تراد فى اليسار .. كل منها تطلق على اليد وعلى الجهة الشمال .. واليد اليسرى والجانب اليسار .. والكتب المقدسة كلها تنظر إلى اليد اليمنى نظرة احترام وتقديس .. وتجعل لها دون

رى حق المباركة والتبريك والقسم .. وكان الرومان يعتقدون أن اليسرى مجلبة للشؤم .. وما زال أبناء فارس إلى اليوم يقسمون اليد اليمنى .. وكذلك العرب .. بل إنهم أطلقوا على القَسَم اسم ن .. ويقولون فلان أدى اليمين .. أى أدى القَسَم .. ومن عادتهم بدوا يدهم اليمنى عند القسم .. والرجل يضع يمينه فى يمين صاحبه ة على القسم والعهد .

وكان من عادة العرب أن يزجروا الطير .. فإذا توجه الطائر يمينًا لوا بذلك .. ووصفوا هذا التفاؤل باليمن والبركة .. ونعتوا ئر بالميمون .. ثم توسعوا فى استعمال هذه الكلمة واستخدامها معانى التفاؤل والتبرك والدعاء .

والعرب على العموم يفضلون اليمين على الشمال فى كل شىء .. فى أعضاء الجسم الإنسانى .. فاليد اليمنى عندهم خير من سرى .. وكذلك الشأن فى العين والأذن والرِّجْل .. وقد زاد فى ر هذا التفضيل وتقديسه حكم الدين الإسلامى .. ففى الوضوء لابد من تقديم الأعضاء اليمنى .. والشاعر المتنبى يضحك من كله ويعتقد أنها حظوظ ويقول :

الجد حتى تفضل العين أختها
ويصبح اليوم لليوم سيدا

ومازلنا فى المجتمع العربى عامة نعتبر اليمين أفضل من الشمال .. لوس إلى اليمين مثلاً ، أعلى مرتبه من الجلوس إلى اليسار ..

والعضو الذى يجلس إلى اليمين فى هيئة المحكمة أرقى من الع
الذى يجلس إلى الشمال.

ولما قامت الثورة الفرنسية كان النواب المتطرفون فى آرا
الثورية يجلسون على اليسار فى الجمعية الوطنية.. ومن هنا ن
إطلاق كلمة «يسارى» على كل متطرف فى الرأى ممن فى الثور
متمرد على العرف والتقاليد.

ولما ظهر أصحاب المذاهب الاشتراكية وكانوا أول ما ظه
يعتبرون فى آرائهم من الثائرين المتمردين على العرف والمجتم
أطلقوا عليهم اسم اليساريين.. كما أطلقوا على المحافظين التقليد
اسم اليمينيين.

وفى السنوات الأخيرة اتسع نطاق الاصطلاح فى مدلول ك
يسارى وكلمة يمينى.. فالمعسكر الاشتراكى كله يسارى.. والمعس
الرأسمالى كله يمينى.. والمثقفون فى المجتمع العالمى لا يخرجون
مدلول هاتين الكلمتين.. فهم إما يساريون، وإما يمينيون.. وهذا
الشأن أيضًا فى المجتمع العربى.

وأنا أعتقد أنه من الخير أن يكون فيه يساريون ويمينيون.. وي
ألا نفزع من صاحب رأى متطرف يريد أن يقلب الأمور ع
أعقابها.. وألا تضيق نفوسنا بتزمت يصر على أن يربط الحا
بالماضى الذى لا يتحرك.. فإن التطرف والجمود عاملان لازم
لتوازن المجتمع. وفى الطبيعة نفسها تطور يكاد يكون ثور

ات تكاد تكون جامدة .. ومن بين التيار المتطرف والتيار الجامد
ح التيار المتوازن الذى يضمن للمجتمع السلامة من الانحراف
ور .. والسلامة أيضًا من التردى فى هوة الماضى السحيق .
ن الثورة أمر ضرورى لسير الحياة واندفاعها وتقدمها .. ولكن
الغلو ، بل من الخطر أن تعمد الثورة إلى فصل المجتمع عن
يه فصلاً تامًّا .. فإن الثورة كما يقول أحد الأدباء الفرنسيين
كن أن تنجح فى أن يكون لها آثارها الطيبة فى المجتمع إلا إذا
ت على التقاليد .. وارتبطت مبادئها بالماضى وحريته .. وجعلت
النواميس الأخلاقية الماضية قوانين مدونة .. ولهذا كان لابد من
ى المتزمت فى المجتمع لأنه هو الذى يحد من غلو الثورة ومن
اعها إلى الانحراف .

فليكن المجتمع كله يساريون ويمينيون .. فإن من الخير أن يكون
ار من الجانبين قائمًا على الفهم والتمحيص ، وتقدير الأمور
رها الصحيح .. وأن يكون الهدف نشدان الأصلح والأوفق ..
ن يدور الحوار على أساس من التعصب للرأى واللد فى
سومة .. والاتهام بالعمالة .. والتهجم فى القول .. فهذا هو
رر .. بل الخطر على المجتمع .. وهذا مما يؤسف له أسلوب نراه
مًا بين إخواننا من اليساريين واليمينيين .. بل أكبر الضرر
طر ألا يكون اليسار واليمين مظهر رأى وعقيدة .. بل حرفة
فها بعض الناس فى سبيل العيش والوصول إلى المناصب ونيل
ب .. فهم تارة إلى يسار .. وتارة إلى يمين .

حمير مقدسة !

« .. لم يكن الحمار فى الزمن القديم كما هو الآن فى عالم الحيوار مثال الخنوع والخضوع ، فلا عمل له سوى حمل الأثقال لـ الإنسان ، ولم يكن كما نراه اليوم أشبه بهيكل عظمى يغطيه ج مهان ، دبغته بالذلة والحقارة عبودية الأجيال المتواصلة ، والح المتطاولة ، ولكنه كان حيوانًا فارهًا غضوبًا محبًّا للحرب والخصا وكان جميلا جسورًا كالحصان ، وكان جديرًا بأن يضحى للآلهة ..

ذكر الحمار فى القرآن الكريم على أنه زينة للإنسان قال تعالى ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ ، وذكر أيضا فى مع التشبيه والتعريض على أنه حمال أثقال لا يفقه ما يحمل ، ولا يدر

ا يحمل ، وذلك فى الآية الكريمة : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارًا ﴾
ثيرون من الناس ومن المفسرين للقرآن الكريم ، يستدلون بهذا
ى بلادة الحمار وجمود ذهنه وليس الأمر كذلك ، وليس مما يعيب
مار أنه لا يقرأ الكتب ولا يفقه ما فيها ، فكذلك الجمل والحصان
ل حيوان ، وكذلك كثيرون جدًّا من إخواننا بنى الإنسان .
وقد ذكر الحمار فى الكتب المقدسة التى جاءت قبل القرآن
كريم موصوفًا بأنه مطية الأنبياء والصالحين ، مقرونًا بالأعمال
جيدة ، والمواقف الرائعة ، والآيات الباهرة ، حتى أن التوراة
فت عليه ثوبًا من القداسة ، وصورته فى صورة المدرك لما وراء
يب ، فتجلى له ملاك الرب ، وتكلم فكان كلامه معجزة لبنى
نسان .
وإذا كنت قد قرأت التوراة فلابد أنك قرأت فى الفصل الثانى
لعشرين من سفر العدد (قصة حمار بلعام) ، فقد ركب بلعام حماره
مار مع رسل موآب ومدين إلى بالاق بن صفور ، وبينما هو سائر
الطريق تجلى ملاك الرب للحمار كما تقول القصة الواردة ، فمال
مار على الطريق فضربه بلعام وعدله على الطريق ، ولكنه لم يلبث
حشر بلعام فى طريق ضيق وضغطه ضغطة شديدة ، فضربه بلعام
ية وشدد عليه فى الضرب ، فلم يلبث الحمار أن دخل به إلى طريق
منفذ له ، ثم ربض على الأرض ، فانهال عليه بلعام ضربًا وركلا ،
كن الله أنطق الحمار ، فكلم بلعام وسأله لماذا يضربه ويسرف فى

ضربه، وكشف الرب عن عينى بلعام وعرف أن حماره برىء التمرد والعصيان إلى آخر ما جاء فى تلك القصة التى أور التوراة.

وبنو إسرائيل، شعب الله المختار، مدينون بوجودهم إلى حـ بل إلى فك حمار ميت، فقد كان الفلسطينيون يعملون الإسرائيليين قتلا ونهبًا حتى كادوا يفنونهم عن آخرهم، ثم ظهر الإسرائيليين شمشون الجبار وخرج لقتال الفلسطينيين، وقد وجـ طريقه حمارًا ميتًا فأخذ فكه وقاتل به فقتل خمسة آلاف الفلسطينيين، وبهذا نجا الإسرائيليون من الفناء والمسلط عليه وكان الفضل فى ذلك لهذا السلاح البتار (فك الحمار)!!

أما فى الإنجيل فقد وجد الحمار ذكرًا طيباً وتقديرًا كريمًا، للحمار فى حياة المسيح ثلاثة مواقف: أولها الحمار الذى نفخ عـ عند ولادته فى مزود بمغارة بيت لحم، والثانى الحمار الذى رحـ عليه مريم العذراء مع ولدها يسوع ويوسف النجار إلى مصر عادوا عليه، أما الثالث، فهو الحمار الذى ركبه فى رحلته الأخـ إلى أورشليم، وكان أحد أنبياء بنى إسرائيل قد تنبأ بذلك من ة إذ قال: «افرحى يا ابنة صهيون فإن ملكك سيأتيك وادعًا راكبًا عـ جحش ابن أتان»، وقد أراد يسوع أن يكون - ولو يوماً واحدًا مثل ذلك الملك الذى كان الفقراء ينتظرونه فى كل صباح على أبوا المدينة المقدسة، فلم يأت إلى أورشليم فى هذه المرة ماشيًا كما كـ

ها من قبل، ولكنه عندما وصل بمركبه إلى بنت فاحيل، أرسل
بذين من تلامذته ليحضرا له جحشا قائلا لهما: «اذهبا إلى القرية
أمامكما، تجدا أتانة مربوطة وجحشاً معها، فحلاهما وأتيانى
، وإن قال لكما أحد شيئاً فقولا له، الرب يحتاج إليهما..»
وركب يسوع الجحش إلى أورشليم، وكان ظهر الحجش قاسيًا،
لك وضع أصدقاء يسوع ثيابهم عليه، وكان الطريق صخريًا بين
ل الزيتون وأورشليم ولذلك فرش الجمع المرافق له ثيابهم فى
ريق كما يقول الإنجيليون.

ويقول «جيوفانى بابينى» المؤرخ الإيطالى الذى كتب حياة
سيح عن هذه القصة الإنجيلية: «لا يزال الكثيرون يذهبون حتى
نا هذا إلى أن يسوع ما أراد أن يركب جحشا إظهارًا لوداعته،
لالة على تواضعه، ولكن يجب ألا يغرب عن أذهاننا أنه فى العهد
ول من التاريخ، عهد القوة الجسدية، لم يكن الحمار كما هو
ن، مثال الخنوع والخضوع فى الحيوان، ولا عمل له سوى حمل
ال الإنسان، وهو أشبه بهيكل عظمى يغطيه جلد مضطهد مهان
حقرته عبودية الأجيال المتواصلة، ولم يعد له من قيمة إلا حمل
ملال والجوالق والحجارة من الجبال والتلال، فإن حمار الأجيال
ابرة كان حيوانًا غضوبًا محبًّا للحرب والخصام، وكان جميلا
بورًا كالحصان، جديرًا بأن يضحى للآلهة، وقد ركب يسوع
جشًا لم يركبه أحد قبله، جحشًا كجحاش الفرا التى لم تتطبع بعد،

ولم يكن الجحش الذى اختاره فى ذلك اليوم رمزًا لوداعة راك
وإنما كان رمزًا للشعب اليهودى الذى كان المسيح مزمعًا أن ي
وينتصر عليه، الشعب الذى كان كالحيوان المتمرد الحرون الج
الذى لم يستطع نبى أو ملك أن يطبعه ويسود عليه، شعب إسر
الذى كان مربوطًا إلى وتد بحبل رومانى»

فأنت ترى من هذه القصة أن الحمار قد مثل دورًا فى تاريخ المسي
الأول هو دور المحبة والسلام، ولكنه عاد فى القرن الحادى ع
ليمثل دورًا آخر فى تاريخ المسيحية، بل فى تاريخ العالم، ولكن
هذه المرة كان دور الحرب والخصام. ففى ذلك القرن ركب بطر
الناسك حمارًا كما ركب يسوع الجحش إلى أورشليم، وأخذ يط
بأنحاء أوربا وممالكها، وهو يعظ المسيحيين ويحثهم ويحرض م
أوربا وأمراءها وفرسانها على محاربة المسلمين، واستخلاص
المقدس من أيديهم، فأشعل بهذا نار الحروب الصليبية بين الغ
والشرق وهى الحروب التى ملأت الدنيا بفظائعها وشنائعها وخل
وراءها ما خلفت من المغارم والمآتم، فهل يمكن للتاريخ أن ي
تبعة تلك الحروب على كاهل ذلك الحمار الذى حمل بطرس النا
فى رحلته، ومكنه من إدراك طلبته؟؟

أما آخر حمار ظهر فى تاريخ المسيحية فهو حمار القدي
أنطونيوس البادوانى فى القرن الثالث عشر، وقد كان حمارًا ص
طيبًا مباركًا عند الرب، ويظهر أن فى الحمير كما فى الناس صا

ين ومباركين ، فقد طلب ذلك القديس من حماره أن يسجد أمام
بان ليهدى بذلك رجلا من الجاحدين ، فسجد الحمار وتمت
عزة ، وأصبح الجاحد وهو من الطائعين المؤمنين .
ركم عند الحمير من معجزات باهرات ..

تعلم كيف تفكر...

فكر قبل أن تعمل. واحرص على أن تفكيرك سليمًا. فإ التفكير السليم أساس النجاح فى العمل. والوصول إلى ما ترجو عملك من السداد والتوفيق. والمهارة والتفوق.

ولكن كيف تفكر؟. وكيف تضمن أن يكون تفكيرك سليماً؛

كان الإنسان فيما مضى من الزمن يعيش فى سعة من الوقـ لا يدرى كيف يستهلكها ولا يعرف فى أى شىء ينفقها وينتفع بها كانت مطالب الحياة قليلة. ووسائل المعيشة محدودة وكانت خيرا الأرض وافرة عامرة، فكان الإنسان قليل التفكير فى العمل لا يبحث إلا عن ألوان التسلية التى ينفق فيها وقته. وتخفف عـ ملل الراحة الطويلة التى يعيش فيها.

أما الآن فقد أصبحنا فى عصر كثرت فيه مطالب الحياة وعت، وزادت أعباء العمل وتعقدت، وأصبح الإنسان لا يمسى يصبح إلا فى زحمة من المشكلات التى تتجدد دائمًا ولا تنتهى لقًا. ومن ثم أصبح الإنسان دائم التفكير لتذليل هذه المشكلات تغلب عليها. ولاشك أن إنسان هذا العصر أصبح يجد الحياة بة ثقيلة عما كان يجدها آباؤه وأجداده. وهو لهذا دائم الملل من ه الحياة والإقامة فيها. دائم القلق والتأفف مما يحيط به. ومرجع ك إلى ما ترهقه به الحياة من التفكير المتواصل الذى لا يبدو له بة.

لهذا أصبح من الضرورى أن يكون لدى إنسان العصر الحاضر اية من المقدرة على التفكير يكون دائمًا سيد الموقف.

والواقع أن التفكير أصبح فنًا له قواعده وأصوله. وإن كان هذا ن لم يأخذ إلى الآن أية صبغة دراسية. ولم ينهض أحد إلى وضع اب أو بحث واف فيه. فهو موضوع بكر أمام الباحثين ينتظر لف الذى ينسق أبوابه وفصوله ويدعمه بالشواهد والتجارب يدة النافعة.

وقد يعتقد بعض الناس أن قوة التفكير وسلامته مقصورتان على هلات والمواهب الشخصية فحسب. وما يكون لدى الإنسان من اء وسرعة فى البديهة. والحق أن هذا ليس كل شىء فى الأمر بل شدة الذكاء قد تكون غير مأمونة العاقبة. لأنها تجعل الإنسان

يندفع فى معالجة الأمور على غير روية. معتمدًا على ماتلهم سرعة ذكائه. ومن هنا يكون الخطأ والتردى فى الخطأ ولهذا الإنجليز فى أمثالهم. (احذر الذكاء الشديد)، وعندى أن خير ض لسلامة التفكير هو الروية. والإفادة من التجارب والابتعاد النزعات الشخصية والأغراض الذاتية قدر الإمكان، وهنا ي مجال الفرق بين شخص وشخص فى التغلب على مشكلات ا وصعابها.

وإلى إجادة التفكير والخبرة بوسائله. وقواعده يرجع ن الإنسان فى الحياة. فأنت قد تجد شخصين على درجة واحد المؤهلات والمواهب. ولكنك تجد أحدهما قد تقدم فى طريق ا بخطًا واسعة وأخذ مكانة مرموقة فى الحياة والمجتمع، على حين الآخر واقفاً فى مكانه، قابعًا حيث وضع خطواته الأولى. ذلك الأول قد عرف يفكر ويعمل، أو قل كيف يحترف فن التف منتفعًا فى ذلك بمؤهلاته ومواهبه وتجاربه، ومن ثم كان طريقه النجاح سهلا، وكان وصوله إلى الهدف قريباً.. على حين ضل الا الطريق.

فاعرف كيف تفكر، واجعل من التفكير فنًا له قوا المرسومة، واستغل مواهبك وتجاربك فى هذا، تجد نفسك عند الق على حين يظل الآخرون يدرجون عند السفح.

ولاشك أن الإنسان سيجد مشقة كبيرة وهو فى بداية الطر

التفكير السديد يتطلب من الإنسان البحث والمقابلة بين
مات والمواقف، ثم إدارة ذلك كله فى الذهن، وهو ما يسمى
الحضانة، ثم استلهام الخاطر فى إيجاد الحلول، ثم مواجهة
ف بالرأى الحاسم.

هذه كما نرى عملية شاقة تحتاج كما قلنا إلى جهد كبير. ولكن
العملية لا تلبث أن تصير شيئا سهلا يسيرًا على الإنسان
ود والممارسة والإفادة من التجارب ككل عمل آخر، حينئذ
ح الإنسان فى مواجهة المشاكل أسرع ما يكون خاطرًا، وأقوم
كون رأيًا، فنجده محاطًا بكثير من المشاكل والمسائل، ولكنه
مان ما يصرفها ويصدر الرأى فيها، ويجلس هادئ البال كأنه لم
ه أية مشكلة، ولم يتعب ذهنه فى شىء.

ونحن نعجب أشد العجب لكثير من رجال الأعمال، إذ تحيط
المشكلات الكثيرة من كل جانب، وتواجههم الأعمال الخطيرة
ح مساء.. أقول إننا نعجب ونتساءل كيف يتسنى لهؤلاء الرجال
لب على تلك المشكلات والأعمال الكثيرة، وكيف يمكنهم
يفها فى ذلك الوقت القصير، حتى ليخيل إلينا أن هؤلاء الرجال
أن يكونوا من طبيعة غير طبيعة البشر، وأنهم رزقوا من
هب ما ليس عند سائر الناس. والواقع أنهم ناس من البشر.
م لا يمتازون إلا بأنهم عرفوا كيف يفكرون. وتعودوا التفكير فى
يف الأمور حتى أصبح ذلك لديهم عادة. وكثيرون منهم

لا يجدون العناء الذى يجده آخرون فى علاج مشكلة واح
وتصريف الأمر فيها.

فإذا كنت تريد أن تنجح فى عملك فاعرف كيف تفكر. واج
من التفكير حرفة. فإن التفكير السليم شرط النجاح فى العم
وأعتقد أن التفكير فن لابد من إجادته ودراسته..

روح الحياة

فرق كبير بين أن نعيش وبين أن نحيا ، وهو الفرق بين دوافع
يش وبين دوافع الحياة .
فدوافع العيش سبيلها غريزة الأخذ والطلب .. وهى الغريزة التى
ى الجانب الحيوانى فى الإنسان .. فإذا تسلطت هذه الغريزة على
نسان واستبدت بكل شىء فيه .. ظلت حياته فى ذلك الوضع
يوانى الذى يستوى فيه الإنسان والحيوان .
أما دواعى الحياة فإنها تنبعث من شىء أنبل من هذا وأكرم ..
ا تتمثل فى إحساس الإنسان بالحياة ، وما يتدفق فى عواطفه
شاعره من روح الحياة ، حتى يكون إنساناً .. غايته فيما يعمل أن
ـ قيمته الإنسانية ، وجهده أن يبلغ بهذه القيمة سمو الفضيلة

والتفوق . وأن يكون معنى من معانى الإنسانية التى تتمثل فيها دلا الحياة المهذبة الراقية .. والتى تغالب الجانب الحيوانى فى الإنسان وكل الدوافع التى تتقهقر بحياة الإنسان ..

هذا الفارق بين الإنسان الذى يعيش والإنسان الذى يحيا ، الفارق بين الأمة المتحضرة التى تفهم معنى الحياة بمعنى وتحس به الحياة .. فهى تحيا بروح أكبر من معدتها .. أو كل معدة تخ روحها .. وبين أمة تعيش بغرائزها .. وفى طفولة مشاعرها لا يعنيها إلا مطالب المعدة وكل ما ينبعث عن المعدات . شهوات ..وهذه هى مأساة الجيل الحاضر إنه جيل يعيش وليس روحه روح الحياة ، ولا فى إحساسه إحساس بمعنى الحياة .

الجيل الحاضر يعيش فى أكبر مظاهر المدينة .. وينعم بأبد مستخرجات الحضارة .. ويتمتع فى رفاهيته بآخر ما وصل إليه ابتك العقل من وسائل الترف المادى .. ولكنه لا يجد مع هذا كله المسر بالحياة التى كان يجدها آباؤنا وأجدادنا .. ولا يظفر بالمتعة والراء والرضا والبشاشة التى كانوا ينعمون بها .. ويحسون سعادتهم فيها ، إنه جيل يعيش فى ضجر وقلق وسخط على نفسه ، وعلى الناس وعلى الحياة .. ذلك لأنه فقد روح الحياة والإحساس بمعنى الحياة

فهل من الممكن أن نبعث فى هذا الجيل التعس روح الحياة ، وأ نثير فيه الإحساس بمعنى الحياة ؟ .

* * *

تفقد الأمة الرأى، حينما تفقد عنصر القوة والحياة، فتسترخى أحضان الضعف وتستسلم للجمود والخمود، وتعيش فى تدبر ونها على التسلق والتقليد والأخذ من غيرها، ولو كان هذا الأخذ سخ لطبيعتها ويقوض ذاتها، وهذه هى العلة التى منى بها العرب جميع أفكارهم بعد أن جثم الاستعمار على صدورهم وأخمد أنفاس نياة فيهم، ويستقطب لهم كل كلمة للتفكير والتدبير، ومات دهم كل رأى ناضج للتبصير والتنوير، حتى أصبحوا علة من ل الوجود يعيشون على هامش الحياة ونوافلها، لهم ماضى مجيد أنه ليس ماضيهم، وحاضر ولكنهم لا ينتفعون به، ومستقبل كنه ليس مستقبلهم.

* * *

ليست السعادة فى قصور الملوك ولا فى صوامع النساك، ولا فيما ن القصر والمنسك، إنما السعادة عندى، فى المستطاع من رغد عيش، وأنت حين تعرف الطريق الذى ستسلكه والعقبات التى امك، وترضى نفسك وألا تقف الصعاب والعوائق فى طريقك، بل تخطاها بلا ملل ولا عضل، وأن تصل بالدأب والاستمرار إلى نصى ما يمكن الوصول إليه، فتقدر على مكافحة الشدائد، فإن ذه هى السعادة.

* * *

والحياة الدنيا كلها معارك وحروب، وليس تاريخ الأمم إلا

انتصارات وهزائم وغالب ومغلوب، ولكن من بين هذه الحر
والانتصارات التي تمضي متتابعة مألوفة في حياة الناس حر
وانتصارات تقع وتكون أكبر وأسمى من مألوف الناس في تفكي
وتقديرهم وفهمهم للأمور، مما يكون من أسبابها في تقدير ال
ولباس المنطق، وإن في هذا دليلا على أن في الحياة الإنسانية ق
وعناصر وبواعث تهزأ أبدًا بحجج العقل، ولا تحفل ببرا
المنطق، ولا تذعن لما يسمونه حد الإمكان وما نملك من طا
وتدهشنا هذه، فنقول إنها قوة خارقة، وإنها معجزة.

هذه الحروب والانتصارات، وهذه الخوارق والمعجزات، هي ا
تضع تاريخ البشرية في نطاق الحرب ونطاق السلم على السوا

المرأة تتحدث عن الحب والجمال

شهدت تجربة جديدة للمرأة، حضرت ندوة لأربع شاعرات تحدثن فيها عن الحب والجمال.. إن المرأة تتجمل للرجل حتى يهمس فى أذنيها بكلمات الحب، إنها تبدأ فى إثارته حتى يتحدث عن جمالها.

اثنان يجب ألا يقولا الشعر الغزلى، الكاهن المسيحى والمرأة.

حكمة قالها فى الماضى مفكر إيطالى اشتهر بمواهبه فى الشعر والنقد، فراجت عنه بين الناس، وحسبها بعضهم شهادة حق ممن له الحكم فى هذه القضية، ولكنا إذا أوجبنا على الكاهن المسيحى أن يكون بمنأى عن شعر الغزل، وكل ما يتصل بالحب والغرام، احترامًا لتقاليد الكهانة التى فرضها على نفسه، فبأى حق توجب

على المرأة وهى موضوع الحب والغزل، وعنوان الجمال والغرام

وعندى أن أحدًا لم يوجب على المرأة هذا قط، ولست أقول مع القائلين إن الرجل هو الذى ظلم عواطف المرأة وحجر عليها .. فلم يسمح لها أن تبوح بأحاديث الحب والغرام .. وأن تعبر تعبيرًا صريحًا عما يضطرم بين جوانحها من لواعج الشوق والهيام، ولكن المرأة هى التى فرضت هذا على نفسها، استجابة لطبيعتها، وإمعانًا فى غرورها، فإن المرأة تحب أن تكون مطلوبة لا طالبة ومرغوبة لا راغبة، وهى تعتقد أن هذا التمنع مما يقوى مكانتها، ويضاعف من جمالها فى عين الرجل وإذعانًا لهذا الاعتقاد كبتت المرأة عواطفها وعاشت وراء قناع من الخجل، تثير الرجل وتحثه بشتى المغريات للحديث عنها، ويلذ لها أن تسمع.

الحب بين المرأة والرجل

صحيح أن الحب عارض فى حياة الرجل، وهو فى حياة المرأة نصفها وحكايتها كما تقول الكاتبة الفرنسية مدام دى سنابل، ولكن المرأة لا تحب أن تروى هذه القصة وتحكيها عن نفسها، وإنما تحب كل الحب أن تسمعها من الرجل، فالمرأة تتزين وتتجمل وتتصدى للرجل بكل أفانين الإثارة .. حتى تدفعه إلى الإشادة بجمالها، وليكون البادئ بكلمة الحب وهمسة الغرام، وعلى هذا عاشت المرأة عبر العصور الماضية وهى تسمع، والرجل يسكب فى أذنيها كل يوم

كل ساعة، حديث الحب والجمال. وعبارات الوجد والهيام، حدث فى هذا عن عواطفه ومشاعره، وعن عواطف المرأة مشاعرها، ويروى ما يكون منها، وهى بهذا قريرة راضية.

هذا الاستسلام من المرأة و «توكيلها» للرجل فى أن يتحدث ن جمالها وحبها وعواطفها وكل ما يعتمل فى نفسها من مشاعر لحب، هو الذى هيأ للرجل أنه فارس الميدان، وأنه صاحب القوامة لى المرأة فى هذا الشأن، وأن من حقه وحده أن يقول شعر الغزل، أن يقول كل شىء فى هذا على المرأة، حتى ولو فضح أسرارها زور مشاعرها، وليس لها أن تقول أى شىء، ولم يلبث هذا أن صبح من التقاليد المرعية فى مختلف المجتمعات والبيئات، وتحت طأة هذه التقاليد كان من العار أن تقول المرأة شعرًا فى الغزل، حتى جاء صاحبنا الإيطالى وأوجب عليها ألا تقول هذا الشعر كأنها قد اعتزلت مباهج الحياة كالكاهن المسيحى.

ونحن إذا ما رجعنا إلى تاريخ الأدب العربى نتلمس عواطف لمرأة وما بلغته فى ميدان الشعر إلى جانب الرجل، فإننا نجد لنساء قد بلغت الذروة فى فن الرثاء، ونجد شاعرات أخريات نلن فى الوصف وفى الحكمة وفى كثير من فنون الشعر، حتى فى لفضول، ولكن واحدة منهن لم تجرؤ على أن تقول الشعر الغزلى، وفى العصر الأندلسى ظهرت شاعرات حاولن أن يلقن شعر الغزل، وقد رويت عنهن مقطوعات قصيرة من هذا، ولكنها مقطوعات

يتجلى فيها زيف العاطفة، وأعتقد أنها على لسانهن ونسبت إليهن وهى على أى حال شىء لا يغنى ولا ينفع ولا يمكن أن يحسب فى ثروة الشعر الصادق، والفن الأصيل.

شاعرة تقتحم الميدان

وفى مطلع هذا العصر، كانت هناك شاعرة تعيش وراء الحجاب فى كنف الحذر المصون، وقد حاولت وهى وراء الخدر أن تقتحم هذا الميدان فى قوة، وأعنى بها الشاعرة الفائزة «عائشة التيمورية» عمة صديقنا القصصى الكبير الأستاذ محمود تيمور، فإن هذه الشاعرة المحجبة فى عصر كان يدين بالحجاب، هى التى يمكن أن يقال إنها أجرأ وأقدر شاعرة رادت شعر الغزل، وتركت فيه ثروة جديرة بالبحث والنظر، وهذا بالنسبة لصاحباتها، ولكل شاعرة رادت هذا الفن من الشعر، إلّا أنها كانت تمشى فى ذلك على استحياء، كانت تقلد الرجل فيما يقول، فتتغزل فى العين والحاجب والخال الذى على الخد، لقد كانت تقول ما يقول الرجل فى المرأة، ولكنها لم تقل ما يجب أن تقوله المرأة فى الرجل، وعلى أى حال فقد كانت ومازالت أجرأ وأقدر شاعرة فى الأدب العربى اقتحمت هذا الميدان، وهناك شىء لابد أن يذكر لها فى هذا الباب بصفة خاصة، فقد كانت من أبرع من نظم «الموال» فى الغزل والحب وقد كانت لها عشرات «المواويل» التى يغنيها أعلام الغناء فى مطلع هذا القرن، ويرددونها

، محافل البهجة والأنس، ومازال الكثير منها يردد إلى اليوم، الكثيرون لا يقولون إنها من نظم تلك الشاعرة التى كانت تعيش وراء الحجاب عائشة التيمورية.

لمرأة غير الرجل

إننى أعتقد أن المرأة عندما تقول ما يجب أن تقوله عن شعر لغزل والحب والجمال، وهو لاشك شىء غير الذى عند الرجل، يجب أن يكون غيره، لأن طبيعة المرأة غير طبيعة الرجل، وشعورها بالحب أقوى وأعمق، وذوقها فى الجمال أرق وأرهف، ولو أنها استطاعت أن تبرز هذا فى صراحة، وأن تخرج من نطاق الخجل الذى عاشت فيه، فإنها ستأتى لاشك بجديد، وستسمع فى الغزل فنونًا وألحانًا غير التى درجنا على أن تسمعها عبر العصور الماضية من الرجل، ولكن يبدو أن المرأة أمامها شوط كبير حتى تصل إلى هذه الغاية، أو تقرب من هذه النهاية.

أقول وقد رأيت تجربة جديدة للمرأة فى هذا الميدان، فقد دعت إحدى الهيئات إلى ندوة أدبية تتحدث فيها ست شاعرات عن الحب والجمال، وجاءت الساعة الموعودة، واحتشد عدد كبير من محبى الأدب والشعر ليشاهدوا التجربة الجديدة، وليسمعوا المرأة وهى تردد ألحان الجمال والحب، ولكن تبين أن شاعرتين هربتا من مواجهة الموقف، وتحدثت الشاعرات الأربع، ولكن حديثهن كان

دون الصراحة بكثير ، حديث يشوبه الخجل الذى عاشت فيه المرأة طوال العصور.

فالشاعرة نجلة شارو ربيع هربت من الحديث عن الحب، وجعلت موضوع قصيدتها « إلى ابنتى » وكأنها آثرت أن تتحدث عن « ثمرة الحب » واستهلت قصيدتها إلى ابنتها قائلة :

أهواك ملء جوانحى أهواك
وأظل فى شوق إلى رؤياك
أمضى نهارى كله فى حيرة
وأذوب وجدًا حينما ألقاك
يابسمة ملأت حياتى بالمنى
لا أبتغى فى العيش غير رضاك

وأنشدت الشاعرة « لورا الأسيوطى » قصيدة عنوانها « الشفق الباكى » ، وهى الأخرى لم تستطع أن تواجه الموقف بصراحة ، فهى تهمس بالحب همسًا إذ تقول :

أتذكر الشمس وقت الغروب
ووجهى المخضوب من لونها
والنخل كالعينين صاح لعوب
والطير مسحور على عينها
لما التقينا فى مغيب الشفق
والشمس تطويها ستور المغيب

وهـلل الكـون لمـرأى الغسـق
يلف وادينـا الجميـل الـرحيب
يـانسمـة فى الـروض يـانسمـة
تهمس بـالنجـوى ولحن الغـرام
وأنت تـزجى لى الروض بسمـة
أبـلغ تـعـبـيـرًا وأوفى كـلام
والشمس تلقى خصلة من ضياء
عـلى الـروابى فى دلال وتيـه
والشفق الضاحك حـول الفضـاء
يجـذب أنـظارى بمـا لاح فيـه

وأما قصيدة الشاعرة « شريفة فتحى » فكان عنوانها « سراب » وفيها اعترفت الشاعرة بالحب، ولكنها لم تحدثنا عن قوة هذا الحب، وما هى حقيقته فى نفسها إذ تقول:

يـا لائمى فى حبـه مـا ذنبيـا
والله قـد خلق الجمـال وقلبيـا
شـاءت مقـادير فجمع شملنـا
والـود أصبـح بـالقضـاء نصيبيـا
لسنـا بـأحـرار نـخـير إنمـا
كتب الهـوى بكتـابـه وكتـابيـا

فعلام لومك فى الهوى يالائمى
وأنا لأمر الله كنت ملبيا

وجعلت الشاعرة «عليه الجعار» موضوع قصيدتها «ثور الكبرياء» الكبرياء فى الحب شىء جميل، ولكن الشاعرة لم تجعله ثورة الحب وإنما ثورة القطيعة، إذ ختمت قصيدتها قائلة:

لا لن أعود إلى هواك
فإنه ذل مهين
إن كان حبك قد عبدت
فقد كفرت بما أدين
حاشا لقلبى أن يطاطىء
للهوى.. حر الجبين

وبعد فإنها كما قلت محاولة، ولكنها محاولة تمشى المرأة بها فى إثر الرجل وتقلده فيما يقول، ولكن متى نسمع ما عند المرأة بعد أن عشنا طوال الزمن نسمع ما عند الرجل.

ما هو سر التغزل فى السمراوات ؟

وأخيرًا وجد أبو سمرة حظه فى دولة الحب والغرام، وبين أهل فن والهيام، فليس هناك من مطرب أو مطربة إلا هو يتذلل فى ستعطافه واسترضائه .. وأبو سمرة يتدلل ويمعن فى الدلال.

وإذا صح أن الفن يعكس إحساس المجتمع .. فليس من شك فى ها ظاهرة جديرة بالبحث والتأمل .. فلعلنا نقف على السر الذى عل المطربين والمطربات يتنافسون على حب أبو سمرة، والتغنى وام أبو سمرة.

فإلى عهد قريب لم يكن للأسمر شأن يذكر فى دولة الفن الطرب، ولم يكن له ذكر بين أهل الحب والغرام، لقد كان اللون لأبيض هو الذى يخطف أبصارنا، ويخلب ألبابنا، ويسيطر على جميع

عواطفنا ومشاعرنا، وكان أهل الفن لا يعجبهم إلا القمر الذى يملأ الكون بجماله، والبدر الذى ينير الدنيا بضيائه وبهائه، وكانت هذه رغبة المجتمع فى فهم الجمال وتقديره، وكان غرام المصريين كله بالوجه الأبيض، المشرق الذى يشبه بدر التم والقمر فى ليلة «أربعتاشر». وقد تمكن هذا الغرام فى المجتمع المصرى بعد أن وفدت على مصر الوجوه الفرنسية والشركسية والتركية وغيرها من وجوه الأمم البيض، أولا. لأن النفس تنجذب بطبيعتها إلى كل ما هو غريب عنها. وثانيا لأن هؤلاء البيض كانت لهم الصدارة فى المجتمع المصرى، وحب التقليد لأهل الصدارة سنة شائعة فى كل مجتمع.

ففى أيام الحملة الفرنسية على مصر، وتغلغل الوجوه الفرنسية بين المصريين حوالى ثلاث سنوات، راجت فى المجتمع المصرى أغنية مطلعها:

ياعاذلى خلينى حب الجميل كاوينى
ع الجمر لو يسلينى بالروح أنا ما اسلاه
يانمر نمرتين ياكويستو يا بونو
وجه الجميل بينور
جل الذى قد صور
وأنا عليه بدور
شرع الهوى وياه

يانمر نمرتين با كويستو يابونو

وإلى جانب هذا راجت أغنية أخرى مطلعها:

محبوبى لابس برنيطة

ودكته عقدة وشنيطة

طلبت وصله قال لى اسبيطه

ما أحلى كلامه بالطلياني.

ولم يكن للأسمر ذكر فى الأغانى المصرية حتى جاءت المطربة منيرة المهدية منذ نصف قرن وغنت أغنيتها المشهورة:

أسمر ملك روحى

ياحبيبى تعالى.. تعالى بالعجل

وقد راجت هذه الأغنية فى المجتمع المصرى، وكان المصريون يرددونها فى القرى لأن منيرة المهدية كانت يومذاك مطربة المجتمع المصرى وكل شىء فى دولة الطرب، ثم راجت بعد ذلك أغنية فى الأوساط الشعبية مطلعها:

أسمر اللون يامّه

حياتى الأسمرانى

وتنوعت أنواع الغناء فى مصر، وتعددت فنونه وألوانه، ولكن اللون الأسمر بقى بمنأى عنه، حتى أن الشاعر شوقى لما أبدى إعجابه باللون الأسمر وقال:

«حليوه أسمر عجبنى لونه»

كانت ذلك فى وصف النيل، فى الأغنية المشهورة التى يغنيها عبد الوهاب «النيل نجاشى»، ثم جاء المرحوم الشاعر على محمو طه فجعل اللون الأسمر مكانه واحترامه، وقدم لنا تلك الصور المصرية الصميمة إذ يقول فى الأغنية التى يغنيها المطرب عبد الوهاب.

يـاضفـاف النيـل يـاخضـر الـروابى..
هل رأيتن على النهر فتى غض الإهاب
أسمر الجبهة كالخمرة فى النور المذاب
سابحاً فى زورق من صنع أحلام الشباب

ولكن هذه الصورة الفنية الرائعة لم تغر أهل الفن بحب الأسم والنظر إلى جبهته التى تشبه الخمرة فى النور المذاب، فبقى منكو الحظ، مجحود المكانة، لا سعر له فى دولة الجمال.

ومنذ أعوام أذيعت فى مصر أغنية:

سمـراء ياحلم الـطفـولـة
يـامنيـة النفس الـعليـلة

وقد ألفها الأمير عبد الله الفيصل، ولحنها كمال الطويل وغناها عبد الحليم حافظ، وهى أغنية عليلة فى تأليفها، عليلة فى تلحينها وفى أدائها، ولكن دعاية كبيرة ملأت الصحف لهذة الأغنية وانبرى كثيرون من حملة الأقلام ليزعموا للناس أنها الفن الذى ليس غيره بفن، وأنها شىء جديد يجب أن يكون الفن على غراره

ويبدو أن هذه الدعاية الكبيرة كان لها أثرها، فقد استرعت لأنظار إلى الأسمر، وانطلق المطربون والمطربات يتغنون بحب لأسمر وجمال الأسمر، فغنت سعاد مكاوى:

البياض أحلى واللا السمار أحلى

وغنى عبد الحليم حافظ:

سمر يا اسمرانى مين أسّاك عليه
لو ترضى بهوانى برضه أنت إللى ليه

وغنت نجاة التى كانت صغيرة:

سمارة سمارة
ليه الحلو بيداره

وغنت فايدة كامل:

ياواد يا سمارة
كفاية شطارة

وغنت فيروز:

وقف يا أسمر، فيه
هنا عندى كلام
قصة عذاب وحب
وحكاية غرام

وغنى محمد قنديل :

أبـو سمـره السكـرة
أبـو ضـكـة مـنـورة

وأخيرا غنت صباح :

أبوسمرة زعلان ليه

حتى محمد عبد الوهاب قال : حياتى الأسمر .. أحب الأسمر فى مقطوعته الموسيقية المشهورة .. فما هو السبب الذى جعل الأسم كل هذه المكانة وكل هذا الحب حتى أصبح على لسان كل مطر ومطربة .

رجل البنطلون !

خرج أحد الأمراء فى أوروبا من قصره ، فوجد السماء ق أمطرت ، فطوى رجلى بنطلونه حتى لا يناالها وسخ الطريق ، ور الناس على هذه الحال فحسبوها مظهرًا جديدًا من مظاهر الأنا فطووا أرجل بنطلوناتهم ، ومازالت مطوية إلى اليوم ، فهل يكو السبب فى لهفة المؤلفين والمطربين على الأسمر هو التقليد ، بعد أ أذيعت أغنية سمراء ومؤلفها الأمير عبد الله فيصل ؟ .

يمكن أن يكون هذا ، ولكنه لاشك سبب ظاهرى ، والحقيقة أ هناك سببًا أعمق فى تفسير هذه الظاهرة ، وأعنى به قوة الإحساس بأنفسنا وبذاتيتنا ، لقد تطهرنا من الوجوه البيضاء والحمراء ، إ

ح هذا التعبير ، وأصبحنا ننظر إلى الأمم التى كانت تورد لنا هذه وجوه نظرة الند للند بعد أن كنا ننظر إليها فى مقام السيادة الصدارة .. فكان من الطبيعى أن نعود إلى أنفسنا فنستجلى الجمال ، منابتنا وفى بيئتنا ، وأن ترتاح نفوسنا ومشاعرنا لذلك اللون الذى حته شمسنا ، وصنعه جونا ، ولهذا أعتقد أن حظ أبو سمرة لن نف عند هذا الحد ، ولكنه سيصبح المحور الذى تدور عليه كل غانينا وألحاننا .. ومع هذا فأبو سمره زعلان .. أو على الأصح نلان .. ومن حق (أبو سمرة) أن يزعل ، وأن يتدلل حتى تتم مروط الحب ، واللى وجد بخته يتدلل ويتدلع ..

غرام الأسمر

بقى هناك سؤال لعلى أجد الجواب عنه عند أهل الفن والغرام .

إذا كان من حق صباح وفيروز وفايدة كامل أن يتدلهن فى غرام لأسمر ، ويتلهفن على حب الأسمر ، لأن هذا منطق الطبيعة ، منطق العلاقة بين المرأة والرجل ، فكيف استسيغ من عبد الحليم افظ ، ومحمد قنديل وغيرهما من دولة الرجال أن يكون غرامهم لأسمر ، وإنما منطق الطبيعة أن يكون بالحلوة السمراء .

رقم الإيداع		١٩٨٤/٢٠٥٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٧٤٣-٨	ISBN

١/٨٣/٣٠٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٥٠